الفصل الثاني

آثار الحملات العسكرية المغولية على الأرياف

أ- الآثار على الأرياف والقرى

لا شك أن هناك جملة من التساؤلات التي تطرح نفسها على بساط البحث وهي كثيرة، فما هي الآثار التي نجمت عن الحملات العسكرية المغولية على القرى والأرياف في بلاد الشام، سواء كانت آثاراً اجتماعية أم اقتصادية؟ ما هو الضرر الذي لحق الطاقة البشرية الريفية، والضرر الذي لحق الأراضي ومنتجاتها؟ وهل تابعت القرى حياتها العادية بعد الضرر الذي لحق بها؟ هذه الأسئلة لا بد من الجواب عنها من خلال هذا البحث.

لقد طغت الكتابات السياسية في فترة البحث على موضوعات التاريخ الاقتصادية والاجتماعية على الرغم من اهتمام بعض المؤرخين بإيراد معلومات اجتماعية واقتصادية لكن على نطاق ضيق. فنادراً ما اهتم المؤرخون بفرد من أفراد الشعب العاديين اللهم إلا إذا كان لهذا الفرد علاقات مع السلطة الحاكمة، وإن كانت المصادر قد استفاضت في ذكر حياة المدن الاجتماعية والاقتصادية فإنها كانت مقلة جداً بالنسبة إلى الأرياف. فلم تذكر سوى هجرة سكان المدن إليها واعتصامهم بها للاقتناع بأنه المكان الأمين البعيد عن أيدي المغول.

وضمت الأرياف فعاليات اقتصادية كثيرة إضافة إلى الفعاليات الاجتماعية، فقلما تخلو قرية من مسجد أو حمام أو خان، غير أنه على ما يبدو أن الفلاحين كانوا يعانون الكثير بسبب سوء الإدارة الحكومية نحوهم. فقد خضع الفلاحون لقوانين في التعامل الزراعي، فلم يكونوا ملاكاً للأرض وكذلك المقطعون، ومع ذلك كانوا يديرون الأرض لحساب رجال الإقطاع والأوقاف والملاك، وقامت القوانين على عدة قواعد منها المقاسمة أو المثالثة أو المرابعة أو المخامسة أو المسادسة أو المسابعة أو المثامنة واعتمدت قاعدة المقاسمة في الأراضي المروية، والمرابعة في غالبية أراضي البعث التي تزرع بالحبوب، واستخدمت قاعدة المخامسة والمسادسة والمثامنة في الأراضي الواقعة على الأطراف. ففي المقاسمة يأخذ الفلاح نصف الإنتاج

والإقطاعي النصف الآخر، وفي المثالثة يأخذ الإقطاعي الثلث، وفي المرابعة الربع، وفي المخامسة الخمس، وفي المسادسة السدس، و في المسابعة السبع، و في المثامنة الثمن[1]. وقد اختلفت هذه القواعد عند التطبيق فكانت أحياناً تتبع الظروف السياسية، وأحياناً ارتبطت بالعوامل الاقتصادية. فالفلاح في كثير من الأحيان ترك الأرض وهجرها إلى المدينة عند اجتياحها من قبل الغزاة، أو هجرها إلى مصر، أو تعرضت محاصيله للمصادرة إما من قبل الحكومة أو من قبل الغزاة أنفسهم. ويلحق بذلك أن فرضت على الفلاحين ضرائب كثيرة لوقف التدهور الاقتصادي الذي تعرضت له الإدارة الحكومية في بعض الأحيان، ولسد العجز المالي نتيجة الإنفاق على الحملات العسكرية لصد الغزاة المغول. لقد خسر الفلاح كل شيء إبان هذه الغزوات محاصيله، مواشيه، إضافة إلى عياله وأولاده فقد تعرض الفلاحون بشكل مباشر من قبل المغول إلى القتل والتشريد والنهب شأنهم في ذلك شأن أهل المدن، لذلك لا بد من دراسة آثار هذه الغزوات عليهم بالتفصيل.

١- قتل السكان وتشريدهم ونهبهم:

من المعروف أن الفلاحين قطنوا في مناطق وسط بلاد الشام وشمالها، وقد تعرضوا منذ أيام هولاكو وحتى تيمورلنك إلى نكبات هائلة على أيدي الغزاة المغول، فقد دمر الريف الحلبي ووصلوا إلى ريف حمص وفعلوا به أيضاً مثل ريف حلب، كما وصلت غاراتهم إلى ريف فلسطين لكنها لم تتعد المرة الواحدة أو المرتين.

لقد عانى الفلاحون من الظلم والخراب الذي لحق بهم أثناء قدوم المغول سنة ٦٥٧ هت/١٢٥٨م بقيادة ابن هولاكو إلى نهر الجوز وتل باشر[2]، فلا بد أن تكون الأراضي الزراعية قد تأثرت بمرورهم ولو على صعيد المزروعات، وقد تابع المغول مسيرهم واجتازوا عدة قرى منها حيلان[3]، الحاري، سلمية[4]، وقاموا بقتل السكان حتى اضطربت مدينة حلب لهذه الأحوال[5].

١- النويري: ج ٨ ص ٢٥٧ – السبكي: معيد النعم، ص ١٢٧- زعرور: المرجع نفسه، ص ٢٣٣.

٢- تل باشر: قلعة حصينة في شمالي حلب وأهلها نصارى أرمن، لها ريض وأسواق، وهي عامرة أهلة – انظر الحموي:معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٠.

٣- حيلان قرية شمالي حلب فيها أعين جمع ماؤها وسيق إلى المدينة: انظر ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج١، ورقة١٠

٤- سلمية: هي بليدة في ناحية البرية من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين وكانت تعد من أعمال حمص، انظر ياقوت، ج ٣، ص٢٤٠.

٥- ابن شداد: (عز الدين): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج ٣، ق ٢، ص ٢٧٤ ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ٢، ورقة ٤١٤- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧٨، ص ٧٤-٧٥.

أما ريف دمشق فقد تعرض لأبشع انتقام، فقد وصل المغول سنة ٦٥٨ هـ /١٢٥٩م إلى دمشق من جهة الغوطة مارين من وراءها إلى جهة الكسوة، وقد أهلك الغزاة كثيراً من السكان حيث كانوا قد تجمعوا وتحزبوا لقتالهم، فقد قتلوا جماعة من أهل قرية حرزم[١]، وكانت غوطة دمشق تحوي الكثير من القرى، ولم تقتصر على حرزم فقط، بل ضمت قرى كثيرة أمثال سكا[٢]، قرحتا القيسا، النشابية، زملكا[٣]، جرمانا[٤]، تلفيثا، الحديثة، عين ترما، جوبر، كفر مديرا[٥]، سرابا، دوما، جسرين. وكان أكثر هذه القرى يقع في المرج ومنها القيسا، حران المرج بينها وبين الغوطة أربع ساعات[٦].

غير أن الباحث كرد علي لا يصنف قرى المرج ضمن نطاق غوطة دمشق، وأهم قرى الغوطة لديه من حيث وفرة السكان (دوما) حاضرة الغوطة الشمالية و(داريا) حاضرة الغوطة الجنوبية[٧].

لم يقتصر عمل الغزاة على إهلاك الطاقة البشرية الموجودة في القرى، بل لا بد أنهم أقدموا على تدمير سبل الحياة المعيشية في هذه الأرياف، فقد كانت الأرياف تشتمل المساجد التي انتشرت بكل قرى الغوطة، إضافة إلى الحمامات والخانات والخانقاوات، فقد اشتهرت الصالحية بحماماتها، وأهمها على الإطلاق حمام الركنية، الشبلية، الزهر، الجورة، المقدم، العرائس، الزمرد، العفيف. كما اشتهرت المزة بحماماتها، وجوبر، وسقبا، وداريا، ويلدا، إضافة إلى وجود المساجد بضواحي المزة، وفي الربوة، وبرزة، والقابون، والخانقاوات بالربوة وغيرها[٨].

وشعر الغزاة بأنهم بحاجة للوصول إلى المناطق الجنوبية من دمشق، فوصلوا في غاراتهم حتى حوران ونابلس والصلت والخليل وقتلوا الكثير من سكانها، واستاقوا مواشيهم من البقر

١- حرزما: قرية من قرى المرج وثلثها وقف على دار الحديث الأشرفية: ابن عبد الهادي: ثمار المقاصد، ص ١٣٦- أبو شامة: تراجم، ص ٢٠٣- اليونيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٤٩-٣٥٠ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٧٦.

٢- سكاء: كانت تعرف في القرن السابع بقصر سكا، كما في كتاب التمهيد وهي ما زالت باقية وليست من قرى الغوطة، ينظر كرد علي: غوطة دمشق، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤م، ص ٢١.

٣- زملكا: وتورد باسم زملكان بالنون. ينظر كرد علي: المرجع نفسه، ص ١٩، حاشية رقم (٥).

٤- جرمانا: وردت في معجم البلدان جرمانس ينظرك كرد علي: المرجع نفسه، ص ١٨-٢٢.

٥- مديرا: وردت في الدارس مديري، ينظر كرد علي: المرجع نفسه، ص ٢٠ حاشية (١).

٦- ابن عبد الهادي: ثمار المقاصد، ص ١٣٥-١٤٠.

٧- كرد علي: المرجع نفسه، ص ١٧ وللمزيد من التفاصيل ينظر المرجع نفسه، ص ١٨-٢٢.

٨- العسقلاني: الدرر، ج ٤، ص ٦٠- العيني: عقد الجمان، ج ٣، ص ٢٨٨- النعيمي: الدارس، ج ٢، ص ٤٣٨-٤٣٩- ص ٤٤٢- ابن عبد الهادي: المصدر نفسه، ص ٥٠-٥٢-١٥٨-١٥٩.

والغنم الشيء الكثير[1].

من الطبيعي أن يكون لقتل سكان الريف آثار سلبية انعكست عليهم، فقد كان أهل الريف يغدون إلى أسواق المدن ببضائعهم من المنتجات ويعودون إلى قراهم بعد بيعها، وفي فترة الغزوات كانوا يحجمون عن الحضور إلى المدن وبالتالي خسارتهم لأسباب معيشتهم اليومية. وعاود المغول هجومهم على ريف حلب سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠م فاثر معركة عين جالوت عاد القواد المغول إلى بلادهم، وكان هولاكو قد غضب عليهم، فأصدر أمراً بأنه من أقام في الأردن قتل، فعادوا إلى بلاد الشام وأغاروا على قرى حلب، فانهزم أهل القرى من وجههم ودخلوا مدينة حلب، عندئذٍ أصدر قائدهم أمراً أن يخرج جميع أهل القرى الموجودين بمدينة حلب إلى خارج المدينة، إضافة إلى أهل المدن، وتبقى كل طائفة بمعزل عن الأخرى ثم قتلوهم عن آخرهم[2].

وتحرك المغول إلى المنطقة سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠م حيث أرسل ابغا ملك المغول أخاه منكوتمر فوصل إلى حلب وملك ضياعها، ولما ترامى على مسامعه سير السلطان المصري أحرق الضياع، وقتل أهلها ونهب أموالهم وانسحب، فلما سمع السلطان المملوكي بهذه الأنباء انسحب وعاد إلى القاهرة، فاستغل منكوتمر الموقف وعاد إلى المنطقة وعاث وأفسد أضعاف ما فعل في المرة الأولى فخرج السلطان ولاقاه وكسره كسرة عظيمة[3].

كما تعرضت القرى والسواد التي بجهة حارم سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م إلى فساد إحدى الفرق المغولية التي تقدمت للمنطقة من جهة الروم[4].

وكانت الغزوات المغولية ما بين قدوم هولاكو وحتى قدوم غازان هي الأخف وطأة على المنطقة، وكانت نكبة أهل الأرياف الكبرى عند دخول غازان، فقد نهب الغزاة القرى، وقتلوا السكان سواء في مناطق الشام الشمالية أو الجنوبية، وكانت الضربة القاصمة لأهل قرى دمشق خاصة الصالحية، والمزة وداريا، وغيرها من القرى المحيطية بدمشق. فعساكره

١- أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٢٠٤- اليونيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٥٠-٣٥١- ابن تغري بردي النجوم، ج ٧، ص ٧٧ – دهمان: ولاة، ص ٥١.

٢- ابن العبري: تاريخ مختصر، ث ٤٩٢ – اليونيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٣٥-٤٣٦- النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ٤١- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ٢، ورقة ٨٣- العيني: المصدر نفسه ج ٣، ص ٢١٧.

٣- أبو الفداء: المختصر، ج ٤، ص ١٤-١٥ ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢٩٨-٢٩٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٣٥٠- ابن الطباخ: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦٩- كرد علي: خطط، ج ٢، ص ١١٧.

٤- المنصوري: التحفة، ص ٩٨-٩٩.

عاثت فساداً في الغوطة، بقتل السكان ونهبهم سواء عند قدومه سنة ٦٩٩ هـ أو عند خروجه من دمشق في نفس هذه السنة[١].

وكانت المزة من القرى التي تعرضت للاجتياح المغولي وقت قدوم غازان وكانت تمتع بأراضي خصبة ومزروعات وافرة نتيجة مرور نهر المزة فيها، وكانت لجمالها تسمى المزة وقد وصفها ابن شيخ الربوة حيث قال فيها: «وكان اسمها المنزه لما بها من صحة الهواء وصفاء الماء وحسن القصور وطيبة الثمار وكثرة الزهور والورد واستخراج الماء منه حتى أن حراقته تلقى على الطرقات وفي دروبها وأزقتها كالمزابل فلا يكون لرائحته نظير ويكون ألذ من المسك إلى مدة انقضاء الورد وصفة أخراجه في الكركات»[٢].

ولما قام المغول بنهب سكانها ومعالمها هرب أكثر أهلها خوفاً منهم الأمر الذي سهل المهمة على الغزاة لتدمير أفنيتها ودساكرها، إضافة إلى الطواحين الموجودة على أنهارها، فقد كان يخترقها نهر يسمى باسم نهر المزة، وكان هذا النهر يسقي بساتين كثيرة إضافة إلى قيام الطواحين عليه[٣].

وقرية الصالحية من ضمن القرى التي تعرضت لخراب ودمار شامل، على كافة الأصعدة السكانية، العمرانية، الاقتصادية، فقد أقدم على حرق أماكنها ملك الأرمن، وقد أراد الانتقام من السكان نتيجة لمشاركتهم بالجيوش المملوكية المتوجهة ضد بلاده في معظم الأحيان، لذلك بذل مالاً عظيماً لكبار الأمراء والوزراء ليتوسطوا له لدى غازان بتمكينه من دمشق، لكن الأمير قبجق تعصب للمدينة ودافع عنها، غير أنها سلمت أخيراً إلى ملك الأرمن، فلم يأل جهداً في إحراق المساجد والمدارس وقتل السكان، وقد ساعده على عمله هذا جنود المغول فقد نهبوا جميع محتويات المدارس والجوامع والتراب من البسط والقناديل، ونبشوا الخبايا فظهر لهم شيء كثير حتى كأنهم كانوا يعلمون أماكنها، إضافة إلى نهب كتب كثيرة من الرباط الناصري والضيائية وخزانة ابن البزوري، ونتيجة لذلك قتل الكثير من سكانها فقد قدروا عدد القتلى والأسرى فيها بنحو تسعة آلاف وتسعمائة نفس، لكن هذه

١- الصفدي: الوافي، ج ٤، ص ٣٥٨- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣ ص ٨٩٠- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٣- ابن الطباخ: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٢-٢٨٣.

٢- ابن شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص ١٩٤-١٩٥.

٣- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٩٥- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٨- ابن خلدون: العبر، ج ٥، ق ٤، ص ٨٩٠- ابن صصري: الدرة المضيئة، ص ٩٢- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٩٢- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٤- ابن عبد الهادي: رسائل دمشقية، ص ٣١- عاشور: العلاقات، ص ١٠٢.

الأعمال لم ترق للشيوخ فخرج ابن تيمية، في جمع كبير إلى شيخ الشيوخ يشكو له ما حصل فيها، فتوجه معه إلى الصالحية، فلما سمع المغول الذين بالجبل هذه الأنباء خربوا الدور والمساكن وسبوا النساء، عندئذٍ لم يبق أمام ابن تيمية إلا الشكوى لغازان فتوجه إليه وكان مقيماً بمرج راهط، لكن وزيريه، رشيد الدين، وسعد الدين لم يسمحا لابن تيمية في مقابلته[1].

ومن خلال وصف الصالحية من قبل الجغرافيين والمؤرخين نلاحظ أنها تكاد تكون كالمدن نتيجة لوجود جميع مرافق الحياة الاقتصادية فيها، فهي كبيرة واسعة الأرجاء، كثيرة الحارات، فقد وصفها العمري حيث قال فيها: «الصالحية في سفح قاسيون، ذات بيوت، جنائن، مدارس، ربط، ترب جليلة، وأسواق حافلة بالبز وغيره، وبأعاليها من ذيل الجبل المقابر العامة، وهي مشرفة على دمشق وغوطتها وكل بساتينها وشرفها وميادينها ومجرى واديها»[2].

وقد ضمت الصالحية حارات كثيرة من أشهرها، زقاق الماء، الشبلية، بيت الحارة، حارة الخراب حارة الركنية، حارة رأس العلية، حارة السهم الأعلى، حارة بيت الكويس، حارة المرادوة، حارة حمام الكلاس، حارة المدرسة، وحارات كثيرة بلغ تعدادها ثمانية وثلاثين حارة اشتملت على جميع مرافق الحياة الاقتصادية وخاصة الأسواق والحانات التي أصبحت مركزاً للتجار، عند البيمارستان هانان أحدهما للعنب والثاني للخشب، وبسوق الفاكهة ست خانات، وفي سوق صاروجاخان[3].

بعد تدمير الصالحية وتخريبها وقتل سكانها اتجه الغزاة نحو قرية داريا، وكانت داريا تضم زراعات متنوعة نتيجة اختراق بساتينها بنهر يسمى باسم داريا وقد وصفها شيخ الربوة حيث قال: «داريا قرية عظيمة المغل والأرض وبها قبر أبي مسلم الخولاني وقبر أبي سليمان الداراني»[4].

١- ابن أيبك الدواداري: الدر الفاخر، ص ٢٨- الذهبي: دول، ج ٢، ص ٢٠٣- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٨- ابن خلدون: العبر، ج ٥، ق ٤ ص ٨٩٠- ابن صصري: الدرة المضيئة، ص ٩٢- المقريزي: السلوك ج ١، ق ٣، ص ٨٩١-٨٩٢- العيني: عقد الجمان، ج ٤ ص ٣٣-٣٤-٣٧- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٨، ص ١٢٥- ابن إياس: ج ١، ق ١، ص ٤٠٤- دهمان: ولاة، ص ١٠٠-١٠١- عاشور: العلاقات السياسية، ص ١٥٠-١٥٢.

٢- العمري: مسالك الأبصار، ص ١١٣-١١٤.

٣- ابن عبد الهادي: ثمار المقاصد ص ١٥٥-١٥٦-١٥٧-٦١-٦٢-٦٣- ابن طولون (محمد بن علي الصالحي): القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق، مكتب الدراسات الإسلامية، ١٣٦٨ هـ/١٩٤٩م، ١٣٧٥ هـ/١٩٥٦م، ص١٤٠-١٨٢-١٨٣-٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧-٢٤٨-٢٥٤-٢٥٥-٢٥٧.

٤- ابن شيخ الربوة: المصدر نفسه، ص ١٩٨.

وعندما وصل المغول إليها احتمى أهلها بالجامع فلم يزالوا بداخله حتى دخلوا إليها قسراً وفعلوا فيها كما فعلوا في القرى السابقة فقتلوا، ونهبوا البلد[1].

ولما استقر المغول في دمشق أخذوا في جمع الأموال من الناس، وفرضوها على أهل المدن كما فرضوها على الفلاحين، ونتيجة لكثرة التعذيب والقتل من أجل المال فإنه قتل من الفلاحين والجند مئة ألف إنسان وفي هذا بعض المبالغة، وقد وصف ابن قاضي شهبة هذه الحادثة حيث قال:

رمتنا صروف الدهر منها بسبعة ... فما أحد منا من السبع سالم

غلاء، وغازان، وغزو، وغارة ... وغدر وأغبان وغم ملازم

وقال الشيخ كمال الدين محمد بن علي الزملكاني أيضاً:

لهفي على جلق يا سوء ما لقيت ... من كل علج في كفره فن

بالطم والرم جاؤوا لا عديد لهم ... فالجن بعضهم والحن والبن[2]

وازدادت الأوضاع سواء بعدما اتجه بولاي أحد أمراء غازان إلى قرى فلسطين مع كتائبه فقد نهبوا الأغوار والقرى المتواجدة فيها، وقتلوا الكثير من سكانها وسبوا خلقاً من أطفالها، وعادوا بعدد كبير من الأسرى[3].

ولم تقتصر الأضرار على قرى دمشق أو فلسطين في سنة ٦٩٩ هـ، وقت قدوم غازان بل شملت قرى غيرها جرت على أرضها المعارك العسكرية، وأهم هذه القرى مجمع المروج التي تقع في وادي الخزندار، وقد شهدت هذه القرية المعركة الفاصلة بين غازان وبين العساكر الإسلامية سنة ٦٩٩ هـ والتي استخدمت فيها كافة الأسلحة من الرماح، والسيوف، والدبابيس، وكان جيش المغول في مئة ألف مقاتل، ولم يستطع المسلمون فعل شيء أمام كثرتهم إلا استخدام قوارير النفط التي تسبب اشتعال الحرائق، وبالنتيجة فإن هذه الحرائق سوف يكون لها أكبر الأثر على مزروعات القرى الموجودة في هذا الوادي بكاملها.

كذلك أتلفت الحيوانات المستخدمة في الحرب كثيراً من المزروعات التي كان يعتمد

١- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٩٥- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٨- ابن خلدون: العبر، ج ٥، ق ٤، ص ٩٨٠- المقريزي: السلوك، ج ١ ق ٣، ص ٨٩١- عاشور: المرجع نفسه، ص ١٥٢- كرد علي: غوطة دمشق، ص ١٥٧.

٢- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣١، ق ٣، ص ٨٩٤- المقفى، ج ٧، ص ١٧٣- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٤.

٣- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٤٠٠- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤ ص ١٠- ابن خلدون: العبر، ج ٥، ق ٤، ص ٧٩٣- المقريزي: المقفى، ج ٧، ص ١٧٢- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٤- دهمان: المرجع نفسه، ص ١٠٩.

عليها الفلاحون في معيشتهم اليومية، أو بيعها في أسواق المدينة[1].

كذلك شهدت قرية شقحب المعركة العسكرية الفاصلة بين المغول والمسلمين في بلاد الشام سنة ٧٠٢ هـ /١٣٠٢م. فقرية شقحب تقع في مرج الصفر في الغرب منه، وهو سهل واسع قبلي دمشق، يبعد عنها حوالي /٢٥/ كم ويقع بين قرية الكسوة وغباغب من قرى دمشق، وقد ضم بعض الخانات. يحده شمالاً قريتا الطيبة وزاكية، وغرباً مزرعة المازنية وشقحب، وشرقاً عالقين، وجنوباً اركيس والزريقية. وقد استغرقت المعركة بين الطرفين وقتاً لا بأس به، وقد رافق المعركة خراب لمحاصيل فلاحي القرى الواقعة في السهل، فالحيوانات المستخدمة في المعركة كانت تعيش على مراعي السهل. إضافة إلى ما حدث من خراب في قني الري والأنهار في المنطقة، ناهيك عن المضايقات التي تعرض لها الفلاحون من قبل العسكر المتحارب. وكان لهذا المرج قيمة حربية باعتباره ممراً بين دمشق وفلسطين[2].

وكانت القريتين أو حوارين من القرى التي يقيم بها التركمان وهي على بعد مرحلتين من تدمر، وكان هؤلاء فلاحين يعتمدون على زراعة الأرض وتربية الماشية، وقد تعرضو إلى غزو مغولي كبير نهبوا على أثره الأموال والمواشي وسبوا النساء، فسارعت العساكر إلى رد الهجوم بقيادة أسند مركزجي ومعه عسكر طرابلس، فأدرك المغول بناحية عرض ومعهم الغنائم فدار القتال بين الطرفين حتى تركوا الأغنام واستطاع العسكر الشامي. إنقاذ الأسرى من الحريم والرجال والأولاد وكانت عدتهم تقارب الستة آلاف نفس[3].

ولم يكتف المغول بما فعلوه في القرى القريبة من المدن بل ساروا باتجاه الجبال البعيدة، فقد قاموا بنهب قرى جبل السماق وقتل السكان، حيث أخذوا كثيراً من مواشي الفلاحين من الأغنام والأبقار، وقاموا بسبي وأسر عدد كبير من سكان الجبل[4].

انتهت حملة غازان على بلاد الشام بعد أن أصاب البلاد منها الخراب والدمار والقتل والسلب ولم تستطع البلاد مع مرور مئات السنين استعادة ما كانت فيه من عمران وازدهار

١- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٢-٤٣- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٨٦-٨٨٧- فهمي: تاريخ الدولة المغولية، ص ٢٠١-٢٠٢- دهمان: المرجع نفسه، ص ٨٩-٩٠..

٢- المقريزي: المقفى، ج ٧ ص ١٨١- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٨، ص ١٥٩-١٦١- دهمان: المرجع نفسه، ص ١٢٨- فهمي: المرجع نفسه، ص ٢٠٩-٢١٠.

٣- الحموي: البلدان، ج ٢، ص ٣١٦- المنصوري: التحفة، ص ١٦٤- أبو الفداء: ج ٤، ص ٤٨- ابن حبيب، تذكرة، ج ٢، ص ٢٤٥-٢٤٦- المقريزي: المقفى، ج ٢، ص ١٨٧- ج ٧، ص ١٨٠ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ٨، ص ١٥٨- فهمي: ص ٢٠٩.

٤- ابن أيبك الدواداري: المصدر نفسه، ص ٤٦- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٤١٥- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٣٨.

حضاري واقتصادي.

لا شك أن قدوم أي غاز إلى منطقة من المناطق واجتياحه للقرى والأرياف سيؤدي بالتالي إلى شلل تام على جميع الصعد الاقتصادية الاجتماعية، العسكرية السكانية، فالقرى تعرضت إلى تغيير نمط معيشتها نتيجة قدوم الغزاة فسكان المدن دخلوها بينما هاجر سكانها في بعض الأحيان إلى المدن، هذا التعاكس في الهجرة عكس نتائج سلبية وأحياناً إيجابية على المجتمع الشامي. غير أن بلاد الشام ظلت تنعم بشيء من الاستقرار النسبي حتى قدوم تيمورلنك للمنطقة، حيث جاء بعساكره الجرارة التي دمرت كل شيء في أثناء مرورها، وإذا ما استقرت في منطقة من المناطق فإن الدمار والخراب سيكون بالطبع أشمل وأعم، وكانت أولى المناطق التي تعرضت للخراب هي أرياف حلب، فقد شمل الخراب تل باشر، الباب[1]، الرها[2]، معرة النعمان[3] - وقد استمر جيشه في التخريب لمدة شهر كانوا خلالها يقطعون الأشجار، ويهدمون البيوت، ويتلفون الغلات، ويدمرون الدساكر والأقنية، ولا بد أن يوجد في القرى مجموعة من الطواحين حيث أن الفلاحين قد لحقها الخراب والدمار، إضافة إلى انعدام المواشي والحيوانات التي يعتمدون عليها في الطعام والشراب، وكان تيمور في خلال استقراره بالمنطقة يحتجب عن عسكره، الأمر الذي يفهم من هذا أنه سمح لهم بفعل كل شيء يريدونه، وأطلق لهم العنان بالفساد والدمار، فاستغل الجنود احتجابه ونهبوا الضياع، وبثوا الفساد والذعر وهو غير آبه بما يحدث[4].

بعد دمار حلب توجه تيمورلنك بجيوشه نحو دمشق فلما اقترب أناخ على ظاهرها من داريا إلى قطنا والجول وما يلي تلك البلاد، وماذا يعني أن ألقوا رحالهم على تلك المناطق، إنه يعني القتل والتدمير لكل شيء[5]. وقد امتد نهب الغزاة لريف دمشق إلى غوطتها، حتى قلت المؤن وانعدمت، فساءت الأوضاع الاقتصادية، عندئذٍ شعر تيمورلنك بنقص المواد التموينية وقلة

١- الباب بلدة ذات أسواق وحمامات، لها بساتين كثيرة نزهة. وهي من أعمال حلب. انظر أبو الفداء: تقويم، ص ٢٦٧.

٢- الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ست فراسخ سميت باسم الذي استحدثها. انظر الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٠٦.

٣- معرة النعمان: مدينة من مدن الشام، عامرة جليلة، كثيرة الفواكه والثمار والخصب. انظر أبو الفداء: تقويم ص ٢٦٥

٤- المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٣٤- المقفى: ج ٧، ص ١٧٢- العسقلاني: أنباء، ج ٤، ص ١٩٧- الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٩٣- ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٨-٦٠٠- القرماني: أخبار الدول، ص ٥٠٨- كرد علي: المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٦٧- لامب: تيمورلنك، ص ١١٩-١٢٠.

٥- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٤، ص ١٢١- النجوم: ج ١٢، ص ٢٣٤.

الأعلاف اللازمة لخيول الجند وحيواناتهم فأرسل قسماً من قواته إلى فلسطين قتلت الفلاحين وجمعت الأعلاف، ثم قامت أثناء عودتها بمصادرة كل ما وجدته في بلاد حوران ومنطقة الحولة، وعندما اتخذ قراره بالانسحاب كان قد جلب أعداداً كبيرة من الخيول والجمال لتحميل الغنائم التي تجمعت لديه في دمشق، وبعد انسحابه من دمشق اتجه تيمورلنك شمالاً فدمر ما تبقى من الغوطة، ثم مر بالنبك فدمرها، ومر بحمص ولم يسلم ريف حمص من أذى جنوده، فقد جلب من ريف تدمر ما يزيد على مائتي ألف رأس من الحيوانات وعندما وصل إلى الشمال دخل الجبول إحدى قرى حلب ومن المؤكد أن جنوده عبثوا بها وخربوها ثم انسحبوا من المنطقة[1].

ولم يقتصر الخلل الذي حصل للحياة الريفية على جنود تيمورلنك فقط، بل اشتركت فيها عساكر السلطان المملوكي، فعندما أقامت العساكر منتظرين قدوم تيمورلنك في دمشق كانوا يذهبون إلى بساتين الناس في الغوطة، ويأخذون التبن والشعير، ومن تكلم من الناس قتلوه[2].

لقد تعرضت بلاد الشام منذ هولاكو وحتى تيمورلنك للخراب والدمار، ولم تسلم قرية من قراها من النهب والسلب سواء في الشمال، أو في الجنوب، ابتداء بقرى حلب كالساجور وحيلان وانتهاء بأرياف دمشق وحمص وغيرها[3].

كما أفضت الصراعات والنزاعات السياسية في المنطقة إلى تخريب الضياع، وكانت هذه الصراعات نتيجة ضعف السلطة عن مقاومة الحركات الاستقلالية في بلاد الشام، أما لانشغالها بعوامل خارجية كالاستعداد لصد الغزو المغول الصليبي في المنطقة، أو بعوامل داخلية كثيرة، وقد أدت هذه الصراعات إلى انعدام الاستقرار الأمني الذي انعكس بدوره سلباً على القرى حين خرب أكثرها، ودمر بعضها نهائياً وبدت هذه الصورة واضحة جلية في قضية أقوش البرلي سنة ٦٥٩ هـ/١٢٦٠م فقد خرج عن الطاعة وأفسد في نواحي حماة، وأحرق غلالاً للعشر في الباب الغربي منها[4].

ولما أراد المماليك القبض على يلبغا اليحياوي سنة ٧٤٨ هـ /١٣٤٧م استطاع الفرار بأهله إلى

١- ابن عربشاة: عجائب، ص٢٩٦-٢٩٧- زعرور: المرجع نفسه، ص ٢٤٨- شهاب: تيمورلنك، ص ٣٢٠.

٢- ابن صصري: المصدر نفسه، ص ١٥٩.

٣- ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٣٦٩١- النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ١٨٧- ابن عربشاة: المصدر نفسه، ص ٢٠٧- العيني: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٧.

٤- اليونيني: المصدر نفسه، ج ٢، ص١٠٤- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢١١- المقريزي: المقفى، ج٢، ص ٢٣٣- العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٩٢.

جهة الضمير فطارده البدو والعسكر حتى أنهكه التعب فاستراح في القريتين، ثم سار إلى حماة، فكم أتلفت مزروعات وخربت أشجار نتيجة هذه المطاردات[1].

كذلك حصلت اضطرابات سياسية عنيفة أثرت على قرى دمشق كثيراً من جراء هجوم بيبغاأرس سنة ٧٥٣ هـ /١٣٥٢م فقد عصى على السلطان، ودخل دمشق فنهب عسكره ضياع دمشق وبساتينها، وقطعوا الأشجار التي بها، وكانوا يأخذون ما يأكلون وتأكل دوابهم، كما فجروا بالنساء والبنات ونهبوا ما في الضياع من القماش والخيول والمواشي ولم يبقوا شيئاً.

ولما عاد بيبغا أرس من دمشق إلى حلب ارتكب جيشه أنواع المفاسد وضروب القبائح في جميع القرى الواقعة بين حلب ودمشق[2].

وفي سنة ٧٦٦ هـ/١٣٦٤م أخربت قريتا مشغراً وتلبثاثا من وادي التيم، بسبب فساد أهلهما، وبسبب أنهما حصينتان لاتصل إليهما الفرسان، فهدمتا وعمر بدلهما في أسفل الوادي بحيث يصل إليهما حكم الحاكم والطلب بسهولة[3].

كما سمح استخدام البدو كقوات مساعدة في سورية على شن الغارات على القرى الواقعة حول دمشق وحلب، فقد اعتدوا سنة ٧٩٦ هـ /١٣٩٣م على الفلاحين، فسار نائب الشام بعسكر دمشق إلى البلاد القبلية من جهة العرب، لأنهم كانوا يؤذون الفلاحين، فلما وصل إلى هناك هرب البدو، واستقر الأمر للعامة.

وبشكل مشابه فقد نهب التركمان في شمال سورية والأناضول القرى الزراعية الصغيرة، ووسعوا ملكهم سنة ٨٠٦ هـ /١٤٠٣-١٤٠٤م ليشمل منطقة حلب الإدارية، ولم تسترد حلب سيطرتها على هذه الأقاليم الهامة مثل إنطاكية، سرمين، صهيون، القيصر، حارم، ديار كوش حتى عام ٨١٤ هـ /١٤١١-١٤١٢[4].

وكلفت مشاركات التركمان في الحروب الأهلية وأعمال النهب حلب كثيراً، وذلك بصرف النظر عن الهجمات المتقطعة، ومن المحتمل أن يكون البدو قد أعطوا نزعة القتال للقرويين الذين حاربوا جيرانهم، وقد كانت القرابة في القرى قرابة وحدة أهداف ومصالح،

١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٢٢- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٠، ص ١٦٢- دهمان: المرجع نفسه، ص ١٩١.

٢- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٤٤- ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، ج ١، ورقة ٣١٤-٣١٥- المقريزي: المقفى، ج ٢، ص ٥٦١، كرد علي: المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٤٩- دهمان المرجع نفسه، ص ٢٠٥-٢٠٦٩-٢٠٧.

٣- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٣٠٩ – دهمان: المرجع نفسه، ص ٢٢٨.

٤- ابن صصري: المصدر نفسه، ص ١٦١- لابيدوس: المرجع نفسه، ص ٦٦-٦٧.

وكانت ذات حماية ذاتية بشكل غريزي، وقد كان للعديد من القرى تنظيمات شبه مستقرة ومكملة للعادات القديمة، ومبقية على الروابط القديمة مع البدو، وانتشرت الحزبية بين القرويين أيضاً نتيجة للأحلاف مع البدو على أسس روابط القرابة الحقيقية أو المزعومة[1].

٢- النزاع بين اليمينة والقيسية:

لقد ظهرت النزاعات في الحياة الريفية أكثر من المدينة، وارتبط الصراع الداخلي المشترك وبشكل رئيسي مع البدو ونماذج من التنظيمات التي تبدو متأصلة في طريقة حياتها، وبشكل جيد بالقرابة ووحدة المصالح والأهداف في المنافسات العنيفة حول أراضي المراعي والمواشي، لكن النزاع بين القيسية واليمينة نزاع قديم ومتأصل، وقد استمر هذا النزاع في فترة البحث، واشتد أكثر عند قدوم المغول، وما رافق ذلك من اضطرابات أمنية واجتماعية جعلت السلطات عاجزة عن الحد من توسع النزاع القلبي. وقد انتشرت قيس ويمن في أنحاء بلاد الشام قاطبة، فقد استوطنت يمن منطقة حمص، وقد ضرب المثل بها فقالوا «أذل من قيس بحمص» ومعنى ذلك أن حمص كانت لليمن وليس بها من قيس إلا بيت واحد، ثم وجدت آثارها بحوران ولبنان، كذلك وجدت عشيرة قيس في البقاع. وقد أدى الصراع المستمر بين هاتين العشيرتين إلى خراب ودمار أكثر القرى، وقد ذكر الأسدي في القرن الثامن الهجري حيث قال:

«انتشار الشرور بين القيس واليمن ووقع الحرب والقتال فيما بينهم والفتن، والسبب في ذلك تغيير العوايد، من بطاين السوء، ومن التدليس على الملوك والحكام وولاة الأمر بالإغراء والتسلط على الفلاحين بالظلم، وطلب العاجل والعسف في الحكم، والميل مع القوي وإنهاك التمرد والعصيان، والتشرد عن الأوطان، وتسلطت العربان والعشران على الأراضي والبلدان، وتراكمت الأهواء، ووقع التحاسد والإغراء الموجبان لسفك الدماء، فنهبت الأموال، وقتلت الرجال، وتخلت العشائر، وعظمت الفتن بين القبائل، وصار أهل الزرع والرفع من الفلاحين، على صهوات الخيول مارقين، ولم يكنوا نادمين على أفعالهم إلى أن أوجب ذلك الخراب في كثير من رستاق الشام والقرى والبلدان صارت دمناً ليس فيها إنسان وفي ذلك ما يشهد به الديوان لهذا جميعه: سوء التدبير مع نقص القوة والإمكان، ونقص سنة العدل وسوء التصريف، والأخذ في جانب التقصير والنقصان إلى أن صار الحكم مقدمي الفلاحين ورؤساء العشران، وصار الأعيان منهم يظهرون الطاعة للسلطان ويبطنون المخالفة والعصيان ويستخرجون الأموال بالظلم والطغيان، ويرضون ببعضها من له في الدولة كلام وإمكان،

١- لابيدوس: مدن الشام، ص ١٥٠.

وبما يحملونه من الهدايا والأموال يرشون بها الأعوان، فيسعى لهم، ويلبسون التشاريف الملوكية بين يدي الملك والأمير والسلطان، فيصير كل واحد منهم في بلده وإقليمه إذا عاد إليه ذا قوة وإمكان، وسطوة وأعوان، وخيول وميدان، وإقطاعات ونعم وديوان، وقويت بذلك نفسه وازدرى بقول فلان وفلان»[1].

لقد انقسمت قرى حوران إلى زمر وأحزاب حددت وفقاً للنزاعات القبلية القديمة قيسية ويمنة وقد نتج عن ذلك قتل للسكان ودمار للقرى وخرابها، ففي سنة ٦٧٨ هـ /١٢٧٩م وقع الحلف بين العشير وقامت الحرب بينهم على قدم وساق[2].

كما نتج عن القتال الخطير بينهم سنة ٧٠٩ هـ /١٣٠٩م مقتل ألف شخص بالقرب من السويداء، وقد انهزمت يمن من قيس حتى دخل الكثير منهم إلى دمشق في أسوأ حال وأضعفه، وهربت قيس خوفاً من الدولة، وبقيت القرى خالية، وتركت المنطقة مهجورة[3].

وقد كان القتال فيما بينهم يؤدي إلى أن يحجب عنهم السلطان الأموال، فيثورون ويقطعون الطرقات على المسافرين وهذا ما حصل سنة ٧٥٠ هـ /١٣٤٩م حيث جرد إليهم النائب ارغون شاه ابن صبح مقدم الجبلية[4]. وقد ثارت الحوارنة من قيس ويمن سنة ٧٦٠ هـ /١٣٥٨م وأخفوا عندهم بقرية حوران أحد العشير واسمه وريمن وهو المعروف بعمر الدنيط، وهاجموا القرى الأخرى، فتصدى لهم والي الولاة شنكل منكل، وطلب منهم الدنيط فلم يعطوه إياه، عندئذ طلب النجدة من نائب السلطنة فأمده بجيش كبير حاصر القرية إلى أن استسلم الحوارنة وقتل منهم فوق المائة، وأسر منهم والي الولاة نحو ستين رجلاً، وأمر بقطع رؤوس القتلى وتقليدها في أعناق الأسرى، ونهبت بيوت الفلاحين كلهم وسلمت إلى مماليك نائب السلطنة، ولم يفقد منها ما يساوي ثلاثمائة درهم وكر راجعاً إلى بصرى وأخذ معه الأسرى حيث حبس بعضهم، وساط آخرين، وعلق الرؤوس على أخشاب قلعة بصرى[5].

وقد امتد النزاع القيسي اليمني إلى ناحية عجلون، ولم يعد يقتصر على ناحية حوران،

١- الأسدي (محمد بن خليل): التيسير والاعتبار والتحرير والاختيار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، مصر، دار الفكر العربي مد ١، ١٩٦٧م/١٣٨٧ هـ ص ٩١-٩٢- كرد علي: خطط، ج ٢، ص ١٥٧.

٢- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٨٧.

٣- الذهبي: دول، ج ٢، ص ٢١٥- ذيول العبر، ص ٤٦- ابن الوردي: تتمة المختصر، ج ٢، ص ٢٦٩- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٥٥- لابيدوس: المرجع نفسه، ص ١٥٠.

٤- المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٣، ص ٧٩٨.

٥- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٨٦.

وذلك سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦٠م حيث دمرت قرية عين حتيا التي تقع إلى الشرق من عجلون وخربت، وقطعت أشجارها بالكلية[١].

وقد استغل هؤلاء ظروف البلاد العسكرية حيث الحملات المغولية المتكررة على البلاد، وقاموا أثر حملة غازان على المنطقة بتشليح العسكر، ونشر الرعب والفساد في القرى، فطلب مقدموهم من قبل الحكومة، وطلب منهم جميع ما أخذه هؤلاء المفسدين من أموال الأجناد، وألزموا بإحضار ما أخذ العسكر وأهل البلاد في توجههم إلى مصر وقت الجفلة[٢].

لقد سمح ضعف الدولة للعداء الكامن بالظهور فيما بعد في بداية القرن السادس عشر الميلادي، وبدأت نزاعات القيسية واليمانية من جديد في غوطة دمشق، وهاجمت قرية داريا العديد من القرى الأخرى[٣].

٣- الهجرة من الريف إلى المدن:

- تنوعت الهجرة أثناء حصول الهجوم المغولي على بلاد الشام من الريف إلى المدن وكانت إما هجرة قسرية من قبل السلطة، أو من قبل الغزاة، أو بشكل طوعي خوفاً على حياتهم، فالهجرة كانت عسكرية من الأرياف للمدن، ظناً من أهل القرى أن الأمان موجود في المدن، لذلك نرى أن قرى بكاملها هاجرت بعد دمارها لذلك اضطرت السلطة جاهدة في بعض الأحيان إعمارها بالسكان وإقامة المنشآت العمرانية من جديد[٤].

ولم تسلم قرى الشام الشمالية والجنوبية من الهجرة، وقد تضافرت العوامل الطبيعية والسياسية في زيادة الهجرة، وقد تجلت العوامل الطبيعية في نقص المياه والجفاف. فعندما دخل الأمير المغولي كوكالكي وصل إلى قريب حمص ونهبها وسبى وقتل خلقاً كثيراً من أهلها، ثم عاد إلى حلب فجاء إليها أهل القرى فأخرجهم القائد المغولي مع أهل المدينة وقتلهم عن آخرهم[٥]. وعندما عسكر المغول في البيرة أغاروا على قلعة كركر سنة ٦٦٧ هـ /١٢٦٨م وقتلوا رجالها واخرجوا فلاحيها كرها إلى بلاد الشام[٦].

وعندما تولى غازان الحكم في بلاد المغول وجه ثلاث حملات عسكرية ولمرات متتالية، ففي

١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٨٦.

٢- المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٩٠٢ – العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٨١.

٣- لابيدوس: المرجع نفسه، ص ١٤٩.

٤- الشجاعي: تاريخ الناصر محمد بن قلاوون، ص ١٢٣.

٥- ابن العبري: المصدر نفسه، ص ٤٩٢- كرد علي: المرجع نفسه؟، ج ٢، ص ١١١.

٦- ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٣٥١.

المرة الأولى سنة ٦٩٩ هـ /١٢٩٩م أخربت جيوشه غوطة دمشق، كما قتلوا الكثير من أهل القرى، وفي المرة الثانية سمع أهل الريف بمسير عسكره وعبورهم الفرات، فهاجروا إلى المدن وحذر أهل المدينة أن لا يخرج أحد إلى الجبل أو الغوطة، ولما تأكد الخبر برجوع غازان إلى المشرق دخل نائب دمشق قبجق مع مجموعة من الأمراء ونزلوا تحت مأذنة فيروز بدار بهادر رأس نوبة ودار المطروحي وامتلأت تلك الناحية بهم. كما أصدر أمراً بعودة أهل القرى إلى أماكنهم[١].

كما هرب أهل القرى سنة ٧٠٠ هـ /١٣٠٠م خوفاً من غازان عندما علموا بمجيئه، غير أن ذلك لم يحدث ولم يأت إلى المنطقة[٢].

وتوارد إلى مسامع أهل القرى قبل وقعة شقحب سنة ٧٠٢ هـ /١٣٠٢م أن المغول متجهون إلى البلاد فهاجر الفلاحون من قراهم وتركوها خالية، ووصل الغزاة إلى قارة، وقيل إلى القطيفة فانزعج الناس كثيراً ولم يبق حول القرى والحواضر أحد، وتلقت مدينة دمشق الكثير من هؤلاء المهاجرين الذين ازدحموا بالقلعة، وبالمنازل والطرقات، غير أن المغول وصلوا إلى المرجه واتجهوا إلى الغوطة، ثم عادوا عن البلد ولم يدخلوها[٣].

ولم يكن تيمورلنك بأحسن من أسلافه في سياسته التوسعية في الشام، فقد ارتكب المجازر بأهل القرى كما ارتكبها بأهل المدن، وقد خرب الريف بكامله، من زراعاته، ومواشيه، وسكانه الذين اضطروا في كل الأحيان وليس بعضها إلى ترك قراهم والالتجاء إلى المدن. فلما قدم للمنقطة واستولى على عينتاب هرب الفلاحون أمامه، كما هرب معهم أهل البلاد الحلبية[٤].

كما خاف أهل ريف دمشق وهاجروا باتجاه المدينة عند قدومه للشام، فامتلأت دمشق بالمهاجرين، وكان تيمورلنك قد وصل إلى الصنمين، ولا بد أن تكون جميع هذه القرى قد تأثرت من قبلهم، وقد أقدموا على تهجير الفلاحين من قراهم مثل حارم، شيرز، وكرك نوح[٥].

من الملاحظ أن القرى قد اتخذت من قبل أهل المدن كمحطة لاستقرارهم واستراحتهم،

١- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٩٣-٣٩٩- ابن أيبك الدواداري: الدر الفاخر ص ٣٤- المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٨٨٥-٨٨٦- المقفى، ج ٧، ص ١٦٨- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٨، ص ١٢٧- عاشور: العلاقات السياسية، ص ١٥٤.

٢- المنصوري: التحفة، ص ١٠٦.

٣- الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ٢٠٨- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٤- دهمان. ولاة دمشق، ص ١٣٧.

٤- السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣، ص ٤٧- الشوكاني: البدر الطالع، ج ١، ص ١٧٥ – شهاب: تيمورلنك، ص ٢٨٤.

٥- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٤٠ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ٢، ص ٢٣٨- الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٧٤-٩٣- ابن إياس: ج ١، ق ٢، ص ٦٠٥- كرد علي: المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٧٠- العليمي: المرجع نفسه، ص ١٢٥.

ربما كونها أكثر بعداً عن الجيوش الغازية، وصعوبة وصول الغزاة إليها أحياناً إذا ما كانت جبلية أو طريقها وعرة، والغزاة يركزون على المدن أكثر من الأرياف حيث النفائس وحواصل الدولة، وأموال التجار، والمنشآت العمرانية، بينما لا يستفيد الغزاة من القرى أي شيء لذلك نلحظ هجرات علماء إلى القرى البعيدة خوفاً من الغزاة، فالقاضي جمال الدين المالكي (ت٨٠٥ هـ) الذي ولي حماة وحلب مراراً هاجر عقب فتنة تيمور إلى إحدى قرى جبل سمعان، حيث كانت ابنته قد أسرت بأيديهم وظل قابعاً هناك حتى انزاح المغول عن البلاد، فعاد إلى القضاء وباشر ولايته[1].

ولم تكن العوامل السياسية هي السبب الوحيد لهجرة أهل الأرياف، بل ساهمت في ذلك العوالم الطبيعية التي سببت دخول عدد كبير من الفلاحين بأبقارهم وأغنامهم وجمالهم وحريمهم وأولادهم إلى المناطق الشمالية سنة ٧٩٧ هـ /١٣٩٤م حيث قل المطر عندهم فتفرقوا في البلاد[2].

لقد كان للهجرة آثارها على وضع الفلاحين والزراعة، فقد أدت إلى إهمال الأراضي والاستثمارات الزراعية، وبالتالي نقص المؤن التي تنتجها هذه الأراضي، إضافة إلى إهمال الري. أما بالنسبة إلى الفلاحين فقد تسلط الأمراء عليهم وقاموا بتسخيرهم في أعمالهم ومزارعهم، وقد تصدى الأمير تنكز لهذه المحاولات. ولم يقتصر الأمر منه على مزاولة العمل، بل منعهم من الاجتماع معهم في الفرجة والمنتزهات، غير أن تنكز حلل على نفسه ما حرمه على غيره، فقد سخر الفلاحين في أواخر أيامه.

والظاهر أن تسخير أهل القرى كانت عادة متبعة في الشام فقد استخدموا لذلك سنة ٧٤٥ هـ /١٣٤٤م[3].

نستطيع القول إن أكثر القرى في الشام قد تأثرت بالغزو، فالقرية التي لم تدمر نهائياً وتزال معالمها خربت، والتي لم تخرب هاجر أهلها وتركوها، وقد انعكس هذا سلباً على الحياة الاقتصادية، فالمجتمع الشامي مجتمع زراعي يعتمد على الأرض والفلاحية وإنتاج تلك الأرض، فهذا يعني أن الفلاح هو أساس البنيان الاقتصادي والزراعة قاعدة لهذا البنيان، ولم يكن المجتمع صناعياً بل اعتبر زراعياً على الرغم من وجود الكثير من الصناعات والحرف التي أثر الغزو بدوره عليها، وقد فقدت بعض تلك الحرف نتيجة للخراب والدمار والأسر الذي قام به تيمور.

١- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ٢، ورقة ٣٤٥- العسقلاني: إنباء، ج ٥، ص ١٢٢- السخاوي: الضوء، ج ١٠، ص ١٣.

٢- ابن صصري: المصدر نفسه، ص ١٦٥.

٣- المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥١١-٥١٢- ج ٢، ق ٣، ص ٦٥٣.

٤- معاقبة أهل الجبال:

لقد قام بعض أهل الأرياف بممارسة دور سلبي على الصعيد العسكري، والاقتصادي، والسياسي. فقد قام أهل جبال الجرد وكسروان بالفساد في المنطقة، فقاموا بالتشليح والنهب، والسلب، والاعتداء على أهل المدن واستغلال الظروف السيئة التي كانت تعيشها البلاد خاصة عند قدوم الحملات العسكرية المغولية. وقد نجح المماليك في تجنيد السكان العامة في هربهم ضد هؤلاء المتمردين وذلك بالرغم من غياب الطموح السياسي لدى العامة من الشعب.

وقلما استلم سلطان مملوكي الحكم إلا وأمر بخروج فرق عسكرية لقتالهم وتأديبهم وذلك حتى يستطيع ضبط الأمن الداخلي للمنطقة، فثوراتهم وعصيانهم وتمردهم يؤدي إلى انعدام الاستقرار السياسي المنعكس بدوره على الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

وكان المنصور قلاوون من السلاطين الذين تولوا معاقبة الجرديين وذلك خوفاً من انضمامهم إلى جانب العدو المغولي عند قدومه للبلاد فأعطى أوامره للجند سنة ٦٨٦ هـ /١٢٦٩م بقتالهم، ورغبتهم بالقتال حيث أصدر أمراً بأنه من نهب امرأة كانت له جارية، أو صبياً كان له مملوكاً، ومن أضحى رأساً فله دينار، وكان الذي تولى مهمة استئصال شأفتهم الأمير سنقر الأشقر حيث سبى ذراريهم، وأنزل بهم القتل والفتك[1].

غير أن أهل الجبال سارعوا إلى نجدة الصليبيين، فقدموا لبوهيمند السابع أمير طرابلس سنة ٦٨٨ هـ /١٢٨٩م يد المساعدة وذلك حتى يخفف عنهم الصليبيون عبء الحملات المجردة ضدهم، فأغضب ذلك المنصور قلاوون، فجرد إليهم حملة أخرى في هذه السنة استطاعت كسر شوكتهم[2].

وعندما استولى الأشرف خليل على عكا وغيرها من بقايا الجيوب الصليبية لجأ بعض سكان هذه الجيوب إلى جبال كسروان، وأخذوا يحرضون أهل الجبال ضد سلطنة المماليك، إضافة إلى أنهم كانوا يقطعون الطرقات على التجار والمسافرين، وكانوا دائماً عصاة على نائب الشام وغيره، فأراد الشجاعي النائب المسير إليهم ومقاتلهم لكن أمراء الشام منعوه لكثرتهم وقوتهم، لذلك بادر الأشرف خليل بإرسال حملة سنة ٦٩١ هـ /١٢٩١م بقيادة بدر الدين بيدار، وكان بيدار قد تكونت لديه معلومات حول قوة الجبليين ومنعتهم فرفض الذهاب إليهم ولكن الأشرف أجبره على الخروج مع ثلاثة آلاف فارس ومجموعة من الأمراء

١- ابن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٥٣- لابيدوس: المرجع نفسه، ص ٢٥٢.

٢- عاشور: مصر والشام، ص ٣١٤.

تتكون من شمس الدين سنقر الشقر، والأمير قرا سنقر المنصور، وبدر الدين بكتوت الأتابكي، ولما وصل بيدار إلى هناك عزم على استئصال شأفتهم، لكنه حضر من أثنى عزمه وكسر حدته، فحصل فتور منه في مقابلتهم، عندئذ طمع الجبليون بالعسكر الشامي وكمنوا لهم في المضايق والأوعار وقتلوا وسلبوا الكثير منهم، ولما تحقق هؤلاء بان العسكر بقيادة النائب وليس السلطان خافوا فأرسلوا من يتوسط لهم في إصلاح أمرهم مع السلطان خشية على أنفسهم، فأشار الأمراء على بيدار بإصلاح الأمور، ثم استحلف الجبلية على ان لا يؤذيهم، فاتفق الحال بينهم فأرسلوا له الهدايا، وأفرج عن جماعة منهم كانوا اعتقلوا بقلعة دمشق، وكتب عليهم بمال يحملونه كل سنة، واستحلفهم للسلطان، وقد نسب لبيدار نتيجة هذا الموقف أنه ارتشى وتبرطل منهم، ولولا خذلانه لما طمع هؤلاء بهم[1].

وخلال سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية سار آقوش الفرم نائب دمشق ومعه ابن تيمية وجماعة من المتطوعة والحوارنة من دمشق إلى كسروان لقتال أهلها عقوبة لهم عن موقفهم أثناء هجوم غازان للشام وقد تحصن الكسروانيون بجبلهم المنيع، وقاموا بأذية الهاربين من وجه المغول سنة ٦٩٩ هـ /١٢٩٩م، فقد أسروا الكثير منهم، على سبيل المثال حسن بن أنوشروان الرازي الحنفي أبو الفضائل حسمام الدين، ويقال إنه بيع للفرنج فتعاطى الطب بقبرص ثم شاع أنه بقبرص حي وأنه يطلب ما يفتك به من الأسر، وقد قيل إن هذه القضية لا أساس لها من الصحة[2] ومن المحتمل أن يكون المغول قد أجروا اتصالات سرية مع أهل الجبال تم بموجبها تحديد مهمتهم بالنسبة للجيش المملوكي لقاء مبالغ من المال والسلاح. وكان أكثر أهل الجبال أذى أهل كسروان وجزين، فقد بالغ هؤلاء في أذية العسكر، فأمسكوا بعضهم وباعوهم للفرنج، إضافة إلى سلبهم ما كانوا يحملونه، فقد كانوا يأخذون الجندي قبضاً بالكف ويأخذون ما معه ويرسلونه عرياناً إذا أحسنوا إليه وربما يقتلونه أو يرسلون عليه حجراً فيهلك هو وفرسه، ومما سارع في قتالهم مرور بدر الدين أمير سلاح بالمنطقة قادماً من مواجهة المغول. فعندما سمعوا أرادوا الإيقاع بجيشه فتصدى لهم بعسكره وظل يناوشهم حتى قدم غزة بعدما تخطف أهل الجبال الكثير من أثقاله، كذلك نهب أهل الجبال جيش سيف الدين الطباخي

١- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٢٤٠-٢٤١- ابن يحيى: المصدر نفسه، ص ٢٤-٢٥- المقريزي: المقفى، ج٢، ص ٥٦٣- العيني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٢٨-١٢٩.

٢- الصفدي: تحفة، ج ٢، ص ٢١١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٣- ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، ج١، ورقة ٣٧١- المقريزي: المقفى، ج ١، ص ٢٣٧- العسقلاني: الدرر، ج ٢، ص ١٠ – العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٨٩- النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ٥١٤.

نائب حلب أثناء ملاقاته المغول في الأغوار، فعندما سلك جيشه طريق الساحل ومروا من المناطق الجبلية استفرد الجرديون بهم وفتكوا بهم، ونهبوا ما بقي معهم من القماش والعدة.

عندئذ رأت السلطة أنه لا بد من كبح نفوذهم ومحاربتهم ففوضت هذه المهمة إلى نائب طرابلس الذي اتفق مع جميع نواب الشام على خطة محكمة في القضاء عليهم، وأن تكون المواظبة على الزحف ستة أيام، ولما رأى أهل الجبال هذه القوة وقع الرعب في قلوبهم، وانهزموا فقتل الجيش منهم جماعة كثيرة، ثم حضرت مشايخهم وأكابرهم والتزموا أن يحضروا جميع ما أخذوه من العسكر ولا يخلون عندها درهماً ولا يخفونه، وظل العسكر هناك إلى أن أحضروا جميع ما أخذه الجرديون من القماش والسلاح والعدد من السيوف والرماح، ثم قرروا عليهم مبلغاً من المال تذكر بعض المصادر أنه يبلغ مائة ألف درهم والبعض الآخر مائتي ألف درهم، وأخذوا جماعة من مشايخهم وأكابرهم رهائن معهم إلى دمشق إلى أن يحضروا المال الذي قرر عليهم، فيكونون بذلك قد دخلوا تحت الطاعة، والتزموا بما فرض عليهم وأقطعت أراضيهم وديارهم[1].

ورداً على هذه الحملة وما لاقوه من عسكر دمشق قام أهل الجبال سنة ٧٠٢ هـ /١٣٠٢م بمحالفة الفرنج وكانوا أعواناً لهم في المنطقة مستغلين اضطراب الظروف السياسية والأمنية من جراء المعارك مع العدو المغولي، وقد حاولت الحكومة جاهدة منع هذا الاجتماع بين الفرنج والجرديين، وجرت العساكر الشامية لقتالهم، لكن هؤلاء تصدوا للجيش وقتلوا أكثره، وغنموا أمتعة الجيش وسلاحه وأخذوا أربعة آلاف رأس من خيلهم، وقد انضم الأكراد لنجدة الجرديين، بينما انضم أمراء الغرب التنوخيون إلى جيش دمشق لنجدته، فعاد الجرديون وغزوا عين صوفر وشليخ وعين زيتونة وغيرها[2].

كانت نتيجة معاونة أمراء التنوخين لجيش دمشق، أن ثارت حفيظة الكسروانيين وتأصلت العداوة واستفحلت بين الفريقين، الأمر الذي جعل الحكومة تتدخل لتصلح بينهم وتم ذلك سنة ٧٠٥ هـ/١٣٠٥م حيث أرسل نائب دمشق آقوش الأفرم إلى الجبليين والكسروانيين الشريف زين الدين عدنان يأمرهم أن يصلحوا شؤونهم مع التنوخية، وينضموا إلى طاعتهم،

١- ابن شاكر: فوات الوفيات، ج ١، ص ٧٣- المنصوري: التحفة، ص ٥٨-١٧٨- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٤٠٧- ابن أيبك الدواداري: الدر الفاخر، ص ٤٠- الذهبي: دول، ج ٢، ص ٢١١ – ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٢- ابن يحيى: المصدر نفسه، ص ٧٧-٧٨- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٠٢- المقفى: ج ١، ص ٢٣٧- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٤-٢٦- كرد علي: خطط، ج ٢، ص ١٣٦-١٣٧- دهمان: ولاة، ص ٩١-١١٢.

٢- كرد علي: المرجع نفسه، ص ١٣٧.

وأرسل أيضاً لهذه المهمة الشيخ تقي الدين بن تيمية صحبة بهاء الدين قراقوش، ولم يحصل اتفاق بين الطرفين، فأفتى العلماء بنهب ديارهم بسبب استمرارهم بالعصيان، ورفضهم الدخول في الطاعة، فتوجه أقوش الأفرم من دمشق بجموع كثيرة تبلغ خمسين ألفاً، وقد اشترك معه في الحملة أمراء الغرب ومنهم ناهض الدين بحتر وأقاربه، وقتل منهم في المعركة الأمير نجم الدين محمود وأخوه شهاب الدين أحمد، وسانده أيضاً سيف الدين اسندمر نائب طرابلس، ونائب صفد، وأراد الأفرم أن ينفي عنه تهمة مباطنة الجرديين فخربت الحملة أراضيهم، وقطعت كرومهم، وأخربت بيوتهم وقتل الكثير منهم، وتمزقوا في البلاد، فاستخدم اسندمر جماعة منهم بطرابلس بجامكية، واقطع بعضهم أخبازاً من حلقة طرابلس، واختفى بعضهم في البلاد واضمحل أمرهم[1].

ولم تذكر المصادر بعد هذا التاريخ عن حملات جرت ضد الجبل مما يدل على أنهم هدأوا حتى قدوم تيمور للمنطقة، فقد أوردت المصادر أنه لما انسحب السلطان فرج بن برقوق من المعركة، وعاد إلى مصر عاد العسكر الهاربون وراءه، فوصل بعضهم إلى البقاع، غير أن أهل الجبال انفردوا بهم وشلحوهم، كما قتلوا الكثير منهم، وقد أخذوا خيولهم وسلاحهم وباعوها بأرخص الأثمان، وقد جرى عليهم من أهل الجبال ما لم يفعله الغزاة[2] أنفسهم.

ب - الآثار على الزراعة:

تتركز المقومات الاقتصادية على ثلاثة قطاعات رئيسية هي، القطاع الزراعي، الصناعي، التجاري. فالقطاع الزراعي كان شديد الالتصاق بالجيش، لذلك نتج عنه الإقطاع، فقد أوجدته الحكومة على الأسس التي تلائم وضع الحكام العسكريين، ولا بد للإنتاج الزراعي في هذه الفترة أن يتأثر بحالة عدم الاستقرار التي رافقت مسيرة المجتمع العربي الشامي.

إن الحياة الاقتصادية لا تدرس بمعزل عن الحياة الاجتماعية، فعلاقات الناس فيما بينهم تشكل العصب الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في كل مجتمع[3].

١- ابن شاكر: فوت الوفيات، ج ١، ص ١٧٣- المنصوري: التحفة، ص ١٧٨- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٥٢- الذهبي: ذيول العبر، ص ٣٠- دول، ج ٢، ص ٢١١- ابن الوردي: تتمة المختصر، ج ٢، ص ٣٦٣- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٣٥- الصفدي: الوافي، ج ٤، ص ٣٦٥- ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص ٢٦٨- ابن يحيى: المصدر نفسه، ص ٢٨-٢٩-٩٥-٩٦- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص ١٤- المقفى، ج ١، ص ٤٦٠- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٨٤- كرد علي: المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٣٩-١٤٠.

٢- ابن يحيى: المصدر نفسه، ص ٢١٨-٢١٩- العسقلاني: أنباء، ج ٤، ص ٢٠٠- الصيرفي: المصدر نفسه، ص ٨٥.

٣- ضومط: المرجع نفسه، ص ٨٤.

لقد سيطرت حكومة المماليك في هذا الفترة، وكانت بيروقراطية حربية بنيت على الإقطاع الحربي، وكانت بعيدة كل البعد عن الشعب الذي عانى الجوع وفقدان الأمن، فلم يكن هناك من رابطة بين هذه الحكومة والشعب إلا الضرائب وخاصة من العاملين في الحقل الزراعي، لارتباطهم بسادتهم الإقطاعيين، بالإضافة إلى الصلة التي كان يوجدها بعض المتعممين الذين طالما بذلوا جهودهم لدى الحكام لتخفيف مآسي الناس[1].

لقد أدى الغزو المغولي إلى تناقص مساحة الأراضي المزروعة في القرى التي أخضعوها كما ساهم المغول بعد توقف الحملات العسكرية في انتشار النظام الإقطاعي، فقد أقدم المغول على منح مساحات واسعة من الأراضي الزراعية لأقربائهم وغيرهم من الأمراء المغول، وكان هؤلاء يمارسون في هذه الأراضي سلطات إقطاعية، ويتقاضون رواتبهم من دخلها ويورثونها لأبنائهم[2].

كما تنوعت المزروعات في بلاد الشام، فكانت تحوي على الكثير من الأشجار المثمرة والفواكه والنباتات البرية والبحرية وغيرها. ولا بد أنه أثناء الغزو المغولي للمنطقة أن تكون قد تعرضت هذه المزروعات إلى التلف أثناء تمركز الجيوش في القرى أو نهبها أو أثناء مرورها بها، رغم أن المصادر لم تذكر بشكل مفصل هذه الآثار على المزروعات وإنما ذكرت خراب القرى وإتلاف المزروعات. غير أنه يمكن القول إن الفلاحين في بلاد الشام تابعوا أعمالهم الزراعية وقاموا بزراعة ما تشتهر به المناطق جميعها.

١- أهم المزروعات في بلاد الشام وأثر الغزو المغولي عليها:

تقسم الزراعة في بلاد الشام إلى قسمين مروية، وغير مروية، وكانت غوطة دمشق تقوم بها الزراعات المروية، وقد استخدم الدمشقيون وسائل للري على درجة عالية من التقدم، فلم يكتفوا بتوزيع مياه بردى إلى عدة أنهار تروي مختلف مناطق دمشق وغوطتها، بل أبدعوا طرائق جديدة لرفع المياه حتى يمكن إرواء أي منطقة بالراحة.

وكانت الزراعة في بلاد الشام غالباً صيفية وشتوية، وقليل منها خريفي، وتصدرت الزراعة الشتوية المرتبة الأولى بكونها انتجت مختلف الحبوب[3].

ولكثرة جمال دمشق بزراعاتها وكثرة خضارها وصفها العمري حيث قال:

«بها البساتين الأنيقة، فيها البرك العميقة والجواسق العلية، والبحيرات الممتدة، وتحف بها الغراس

١- ضومط: المرجع نفسه، ص ٨٤-٨٥.

٢- شهاب: الدولة الايلخانية، ص ٢٥٢.

٣- العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ممالك مصر والشام، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية – ص ٢٥.

والنصوب المطرزة بالسرو الملتف البرود، والحور المشوق القدود، والرياحين المتأرجة الطيب، والفواكه الجنية والثمرات الشهية، والبدائع التي تغنيها شهرتها عن الوصف»[1].

وينبت على جانبي بردى الشيح والقيصوم. كذلك اشتهرت بلاد الشام عامة بأشجار التين والعنب والسفرجل والكمثرى، والتفاح، والإجاص، والقراصيا والتوت والفرصاد، والمشمش والزعرور والخوخ.

كما كان هناك فواكه خريفية مثل الجوز، اللوز، الفستق، البندق، الليمون، الأترج، الموز، النارنج، الكباد، قصب السكر، البطيخ الأصفر، الخيار، القثاء، اليقطين، الجرز، الهليون، القنبيط، الباذنجان، الملوخية وغير ذلك من أنواع الخضروات المأكولة، إضافة إلى الزيتون الكثير الذي اشتهر بزراعته الجبل الأقرع والذي يصدر إلى كثير من البلاد. كما اشتهرت الشام بإنتاج القمح والشعير، أما حلب فقد اشتهرت بالبطيخ الأصفر القليل أمثاله في الشام[2].

إن معظم هذه المزروعات تعرضت للتلف أثناء مرور جيوش الغزاة المغول على أراضيها، أو أثناء حصول الغارات من قبل الأعداء، ناهيك عن المعارك العسكرية التي أدت إلى إتلاف معظمها وإلى توقف تصديرها لخارج البلاد.

فمعظم قرى الشام تعرضت للهجوم والغارات عليها مما أدى إلى تضرر زراعتها، والمؤكد أنه أثناء حملات هولاكو - غازان - تيمورلنك، أغار جنودهم على أعمال حلب وأتلفوا معظم مناطقها الزراعية، فتلفت غالب مزروعاتها، فمثلاً سرمين، معرة النعمان كانتا تشتهران بالزيتون، والتين، حارم بالرمان، قد تأثرت معضمها. إضافة إلى تأثر مزورعات الثغور كالشفروبكاس التي اشتهرت بالفواكه، والمرقب بقصب السكر والحمضيات، وشيرز بالرمان، ومنبج بالتوت، ودركوش بالعنب، والصبيبة بالأرز يجلب منها إلى دمشق وغيرها[3].

وكانت مزروعات الجزيرة أكثر تعرضاً للخراب لأنها كانت دائماً الخط الأول للهجوم المغولي على المنطقة، وقد اشتهرت بإنتاج الرمان، الكمثرى، الخوخ، السفرجل في سروج واشتهرت حيزان بشجر البندق، سنجار بالنخيل، وليس في الجزيرة بلد فيه نخل غير سنجار[4].

ومن المرجح أن الزراعات التي اشتهرت في جبل لبنان قد تعرضت للتلف نتيجة مرور الجيوش

١- العمري: المصدر نفسه، ص ١١٣.

٢- ابن شيخ الربوة: المصدر نفسه، ص ٨٥- المصدر نفسه، ص ٢٥-٢٦-١١٦- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٢، ق ٣، ص ٧٠٢.

٣- أبو الفداء: تقويم، ص ٢٣١-٢٥٥-٢٥٩-٢٦١-٢٦٣-٢٧١- ابن بطوطة: الرحلة، ص ٦٧- القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٦-١٢٧-١٢٨- الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ٤٦.

٤- أبو الفداء: المصدر نفسه، ص ٢٧٧-٢٨٣.

المملوكية عبر هذه الجبال سواء عند الذهاب لملاقاة العدو، أو عند عودتها إلى مصر، أو عند قيام السلطات المملوكية بتجريد الحملات العسكرية ضد سكان الجبال. وأهم الزراعات الموجودة في الجبال الزيتون، النباتات البرية الكثيرة مثل الريباس، البرباريس، الكثيراء، الفاوفيا وهو عود الصليب والقيسة والبقس والقيقب الذي يعملون منه المراميل والملاعق، وشجر المحمودة والاشتوان والزراوند والحماما التي لا توجد إلا في إقليم دمشق بجبل لبنان وهو معلق في شقيف عال لا يقدروا على جنيه إلا أن يدلوا جانبه بحبال من رأس جبل عال كما يدلى الدلو في البئر وهي لأجل الترياق. والفاروق والراوندان واللوز المر والحلو والابهل والقراصيا والزيزفون. أما الفواكه فهي كثيرة جداً في المنطقة[1].

كما تعرضت الزراعات في المناطق الساحلية لا سيما المحيطة بطرابلس بالمؤثرات السياسية التي سادت المنقطة والتي ارتبطت بالمغول، فمن المرجح أن جنود غازان قد وصلوا إلى تلك المناطق من أجل جمع الأموال، أو أنهم أغاروا على أراضيها بعد رحيل غازان وبقائهم في المنطقة. وما انطبق على غزوة غازان ينطبق على غزوة تيمورلنك أيضاً.

قامت طرابلس في السهل الواقع على مصب نهر أبي علي، وكان لموقعها أثر كبير في اشتغال سكانها بالزراعة، وكانت المناطق المزروعة لا تقتصر على غوطة طرابلس المحيطة وتعرف أحياناً بالمرج، وإنما تمتد على ضفة نهر أبي علي وعلى سفوح الجبال القريبة منها في إهدن وزغرتا والضنية والكورة.

كانت طرابلس فيما سبق هذه الفترة تصدر منتجات زراعية إلى مصر في عهد الحاكم بأمر الله مثل النارنج، الترنج، الموز، الليمون، التمر، ولكن لم نسمع طيلة البحث في هذه الفترة أنه حدث استيراد من مصر لمثل هذه المنتجات من بلاد الشام، ومع ذلك ظلت طرابلس تحتفظ بمركز الصدارة بين مدن الشام في إنتاج قصب السكر، وفي زراعة الكروم والجوز والنخيل والموز والقلقاس، الذي لا يوجد مثله، والقطن والكثير من أشجار الحمضيات كالبرتقال[2].

وأدت الظروف العسكرية الحربية أثناء موقعة عين جالوت وما سبقها من استعدادات حربية من قبل المماليك والمغول إلى تلف معظم زراعات المنطقة الجنوبية (فلسطين)، فضلاً عن الغارات التي شنها المغول أثناء غزوة غازان على الأغوار والمناطق المحيطة بها. فقد كثرت

١- ابن شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص ١٩٩-٢٠٠- المقريزي: المصدر نفسه ج ٣، ق ١، ص ٣٠.

٢- الإصطخري: (إبراهيم بن محمد): المسالك والممالك، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٣٨١ هـ ١٩٦١م ص ٤٦- ابن شيخ الربوة: المصدر نفسه، ص ٢٠٧- أبو الفداء: تقويم، ص ٢٥٣- سالم: طرابلس الشام، ص ٢٣١-٣٧٨-٣٧٩-٣٨٠.

الزراعات وتنوعت في فلسطين، فمدينة غزة اشتهرت بإنتاج العنب والتين والنخيل والقمح والشعير ومحاصيل صيفية أخرى وكانت هذه الزراعات تعتمد على مياه الأمطار[1]. أما بيت جبرون فقد كثرت فيها أشجار الزيتون، التين، الخروب، وسائر الفواكه الأخرى[2].

وغطيت جبال القدس والخليل ونابلس بأشجار مختلفة مثل الزيتون، ويحمل زيتها إلى الديار المصرية والشامية وإلى الحجاز والبادية مع العربان إضافة إلى البطيخ الزائد الحلاوة، والسرو، والسنديان، والخروب، والسماق، وأشجار الفواكه مثل الخوخ والتفاح واللوز والجوز والتين والكرمة، أما سهولها وأوديتها فأنتجت البرتقال والسفرجل والرمان، وقد اشتهرت الأغوار بالسكر والقند والموز والنخيل، وكانت تزرع بها الحنطة والشعير والسمسم والذرة والخضراوات[3].

وقد تضررت المزروعات في وادي مرجعيون والجرمق نتيجة لمرور الجيوش الذاهبة لصد الحملات المغولية في دمشق حيث يوجد فيها السفرجل والزيتون والفواكه والكروم، كما وجد في الرملة التين والنخيل وكان التأثير أكبر على مزروعات صفد بسبب استمرار تمركز الجيش المملوكي فيها لرد هجمات الصليبيين والمغول على أي منطقة. وقد أنتجت صفد الحبوب الشتوية مثل الرز والقطن بالإضافة إلى قصب السكر والزيتون والخضروات إضافة إلى النباتات البرية مثل البابير، الحلفا التي كانت تستعمل في صناعة الحصر المحلية، كما كان الكتان ينمو في منطقة الجليل ويوفر المادة الخام لصناعة الملابس، إلى جانب وجود الغابات الحراجية كالبلوط والسنديان والصنوبر وشجر السدر. وكانت فلسطين تشتهر بشكل عام بزراعة الوسمة الذي يعمل منه النيل، كذلك وجدت غابة حلفا عند طبرية[4].

وبينما تأثرت بلاد الشام الشمالية والجنوبية بالغزو المغولي في إتلاف معظم محاصيلها، بقيت الكرك والشوبك اللتين اشتهرتا بزراعات كثيرة بمعزل عن هذا التأثير[5].

١- أبو الفداء: المصدر نفسه، ص ٢٣٩- العمري: المصدر نفسه، ص ١٤٢- العليمي: الأنس الجليل، ج ٢، ص ٧٤- القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٩٨- عطا الله: نيابة غزة، ص ٩٧-٩٨.

٢- أبو الفداء: المصدر نفسه، ص ٢٤١.

٣- المقدسي: (البشاري): أحسن التقاسيم في معرفة الأقليم، ليدن، مطبعة أبريل، ١٩٠٤م ص ١٦٦- ابن شيخ الربوة: المصدر نفسه، ص ٢٠٠- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٢، ق ٣، ص ٥٨٤ – العليمي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٥-٥٩- غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس، ص ٧٧.

٤- المقدسي: المصدر نفسه، ص ١٦١-١٦٢-١٦٤-١٧٥- ابن شيخ الربوة: المصدر نفسه، ص ٢١٢- أبو الفداء: المصدر نفسه، ص ٢٣٦-٢٧٧- الطراونة: المرجع نفسه، ص ١٦٤-١٦٨.

٥- البخيت: مملة الكرك، ص ٣٤-٣٥.

أنواع الأراضي الزراعية:

سادت المنطقة ثلاثة أنواع من الأراضي الزراعية، الإقطاع، الملك، الوقف، فالإقطاع كان قاعدة النظام الاقتصادي الاجتماعي وتمتد جذوره إلى الأيوبيين والزنكيين والسلاجقة. وكانت القاعدة أن تعطى الإقطاعات أو الأحياز أو المثالات للأمراء والأجناد بدلاً من الرواتب نظير خدمتهم العسكرية. ولم تكن هذه الإقطاعات تعني حق امتلاكها وإنما الاستفادة من ناتجها فقط.

أما أراضي الأملاك فقد بدأ توزيعها بدءاً من عهد الظاهر بيبرس، فبعد انتصاراته على الصليبيين قام بتقسيم الأراضي بعد الفتح على عدد من أمراء دولته بحضور قاضي دمشق وعدوله ووكيل بيت المال بها، وطلب السلطان منهم بأن يملك الأمراء، المجاهدون من البلاد التي فتحها الله عليه، وتبقى للولد منهم وولد الولد، وما يدوم إلى آخر الدهر ويبقى إلى الأبد، وقد ذكر هذه الأراضي عدد من المؤرخين بالتفصيل منهم النويري والمقريزي وغيرهما.

إضافة إلى هذه الأراضي كانت هناك الأوقاف وهي أراضي قرى أوقفها الظاهر بيبرس على عدد من مزارات الأنبياء والأولياء والصحابة، وكذلك الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٠ هـ /١٢٩١م[1].

٢- آثار الحملات على الأوضاع الزراعية:

سبب قدوم الحملات المستمرة على منطقة بلاد الشام اعتماد حكومة المماليك في مصر بشكل قوي على المنتجات الزراعية في بلاد الشام لارتكازها على صناعة السفن التي تعتمد اعتماداً كلياً على أخشاب الغابات في منطقة الشام، فقد كانت الغابة في منطقة دمشق والجبال اللبنانية ملكاً للسلطان، كما خضعت الأشجار ذات القيمة الاستراتيجية للمراقبة في حال الضرورة، ولذلك فقد نظم المماليك حملات عسكرية إلى خليج اسكندرونة لجلب الخشب المنشور من المناطق الأنفة الذكر الواقعة في شمال سورية ومن مناطق الأناضول البحرية[2].

ففي سنة ٦٨٩ هـ /١٢٩٠م أمرت الحكومة بجلب الأخشاب من أراضي بعلبك لما هنالك من الأخشاب العظيمة التي لا يوجد مثلها في دمشق، فكثرت الجبايات والشكايات وأخذوا أخشاب الناس وحملت إلى دمشق بكلفة عظيمة وشدة كثيرة، ومنذ ذلك الحين تعرضت

١- النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ٢٧٦-٢٨١- المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٢-٥٣٤- العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٠١-٤٠٦- الطراونة: المرجع نفسه، ص ١٥٥-١٦٠.

٢- لابيدوس: مدن الشام، ص ١١٧.

الغابات في المنطقة للتلف الذي أدى بدوره إلى تناقص مساحة الغابات والأراضي الحراجية، هذه الغابات التي استفاد منها الإنسان استفادة كبيرة سواء في خدمة البيئة الطبيعية، أو في الخدمة الاقتصادية. وقد تكررت هذه الحادثة أي قطع الأخشاب مرة أخرى سنة ٧٦٧ هـ /١٣٦٥م عندما أمر نائب السلطنة بتجهيز القطاعين والنشارين من دمشق والتوجه إلى الغابة التي بالقرب من بيروت، وأن يشرع في عمل الشواني في آخر يوم من الشهر[١].

كما سبب الغزو للمنطقة سيطرة حكومة المماليك بشكل ملحوظ على مقدرات البلاد الزراعية وعلى أراضيها، فبين الفنية والأخرى يقوم السلطان المملوكي أو نائب السلطنة بالحوطة على البساتين، كما قام بعضهم بفرض الضرائب الباهظة على القرى والفلاحين، فالظاهر بيبرس أقدم في دمشق على انتزاع أراضٍ كثيرة من القرى والبساتين التي بأيدي ملاكها سنة ٦٦٦ هـ /١٢٦٧م وبزعم أنه قد كان المغول استحوذوا عليها، ثم ما أخذوا شيئاً من أموال الناس المسلمين ملكوها، وإذ استرجعت لم ترد إلى أصحابها الذين أخذت منهم، وخاف الناس غائلة ذلك فتوسط الصاحب فخر الدين ابن الوزير بهاء الدين بن الحنا، وكان قد درس بالمدرسة الشافعية بعد تاج الدين بن بنت الأعز فقال يا خوند أهل البلد يصالحونك بك عن ذلك كله بألف درهم مقسطة كل سنة مائتا ألف درهم فضة، فأبى إلا أن تكون معجلة، ثم بعد أيام وقد خرج منها إلى الديار المصرية أجاب إلى تقسيطها، ورسم أن يعجلوا من ذلك أربعمائة ألف وأن تعاد إليهم الغلات التي كانوا قد احتاطوا عليها زمن القسم والثمار[٢]. غير أن ابنه الملك السعيد أبطل هذه الضريبة سنة ٦٧٧ هـ /١٢٧٨م[٣].

وأراد الظاهر بيبرس السيطرة على البساتين سنة ٦٦٤ هـ /١٢٦٥م ولكن القاضي عبد الله ابن محمد بن عطاء أبو محمد شمس الدين الحنفي (ت٦٧٣ هـ) تصدى له وقال له لا يحل لمسلم أن يتعرض إلى هذه الأملاك ولا البساتين فإنها بيد أصحابها، فغضب الظاهر بيبرس منه، لكن الأمراء شرعوا يتلافونه وقالوا: لم يقل إن مولانا السلطان ما هو مسلم وإنما قال ما يحل لمسلم التعرض إلى أملاك الناس، ثم أثبتوا هذا الكتاب عند القاضي الحنفي[٤].

وقد أدى قدوم الحملات المغولية للشام باستمرار إلى قيام المماليك باتباع خطط حربية مختلفة تعتمد على سياسة الأرض المحروقة، وذلك حتى لا يستطيع الأعداء تقديمها طعاماً

١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٣١٥-٣١٦.

٢- النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ١٥٢-١٥٣- ابن شاكر: فوات، ج ١، ص ١٧١- العيني: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠-٣١.

٣- الذهبي: ج ٥، ص ٣٣٣- المقريزي: المقفى، ج ٥، ص ٤٦٣- السلوك: ج ١، ق ٢، ص ٦٥٠- العيني: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠١.

٤- اليونيني: ذيل مرآة، ج ٣، ص ٩٥-٩٦- النعيمي: الدارس، ج ١، ص ٥٧٨.

لخيولهم عند قدومهم للمنطقة.

وأول من أقدم على هذا العمل الظاهر بيبرس، فقد أمر بإحراق الأعشاب على الحدود الفراتية حتى لا يجد المغول عشباً لحيواناتهم إذا هاجموا البلاد، فقد سير جماعة إلى بلاد آمد وإلى مواضع الأعشاب، وسير معهم القداحات والصوفات وآلات سراً، وأحرقوا من المروج مسيرة عشرة أيام، وكذلك أعشاب بابلا وخلاط، وأحرقت المروج جميعها[1].

كما أن منصور قلاوون قد اتبع هذه السياسة أثر معركة حمص ٦٨٠ هـ /١٢٨١م حيث أن الكثير من المغول اختفى بجانب الفرات فأمر السلطان بحرق المزروعات والأعشاب الموجودة بتلك الناحية، فاحترق من العدو جماعة كثيرة وهلك منهم خلق كثير ممن سلكوا الطريق الصحراوية إلى سلمية[2].

وقد كانت الأراضي المحروقة عبارة عن مراع لخيل الدولة، فإذا ما أراد العدو قصد المنطقة عمد السلاطين إلى حرق هذه الأراضي حتى لا تقدم العلوفات لخيولهم، وكان ينفق في كل سنة من الخزانة على هذه المحرقات جملة من الأموال ويجهز فيها الرجال الأقوياء، وكانوا يستصحبون معهم الثعالب الوحشية، والكلاب المنفرة، ثم يكمن المجهزون في بطون الجبال، وبطون الأودية، وتمضي الأيام حتى يكون يوم عاصف قوى الهواء تعلق النار في أذناب الثعالب والكلاب ثم تطلق الكلاب والثعالب في أثرها وقد جوعت، فتهرب الثعالب والكلاب وراءها فتحرق ما مرت به وتعلق الريح منه فيما جاوره هذا إلى ما كانت تلقيه الرجال بأيديها في الليالي المظلمة[3].

كما أن التصدي للحملات المغولية جعل سلاطين المماليك يتخذون أراضي بلاد الشام مرعى لخيولهم، فالمروج في حارم مثلاً كانت مرباً لخيول السلطان ومحطة لاستراحة السلطان وعساكره، وهذا ما حصل سنة ٦٧٥ هـ /١٢٧٦م عندما عاد السلطان من قتال المغول في بلاد الروم، وصحبة علاء الدين علي بن البروناه، ومن أخذ من الروم أسيراً، كذلك كانت غوطة دمشق مرباً لخيل عساكر المماليك المتوجهين لصد الغزاة ففي سنة ٧٠٠ هـ /١٢٧٦م وبعد رحيل المغول قدم الأفرم من المروج وقد أقام بها مع الأمراء أربعة شهور ودخل مدينة دمشق، ولا بد أن تكون تلك المروج قد تأثرت بخيلهم التي رعتها، إضافة إلى تأثير

١- ابن عبد الظاهر: الروض، ص ١٣٦- النويري: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٦٣- المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٤٧٣- عودات: المماليك، ص ٩٧- العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٢٠٧- عاشور: العلاقات، ص ٧٩.

٢- ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢١٨- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٣٠٦- عاشور المرجع نفسه، ص ١١٩.

٣- العمري: التعريف، ص ٢٠١-٢٠٥.

المزروعات بتلك النواحي. كما أنه في بعض الأحيان كان العسكر يطلقون خيلهم في أي زروع كانت مخصصة للرعي أو غير ذلك دون إذن أصحابها من الفلاحين، وقد سبب هذا تناقص مؤن الفلاحين في تلك المناطق وانعدام قوت مواشيهم مما أثر بدوره عليهم، وجعل شبح المجاعات يخيم على المنطقة في بعض الأحيان، وأدى إلى غلاء الأسعار في أحيان أخرى نتيجة لفقدان بعض المواد[1].

ولم تكن الأراضي هي المصدر الوحيد لتمويل الحملات، بل كانت حواصل الناس وغلاتهم أيضاً مصدراً آخر فعند علم الحكومة باقتراب العدو من المنطقة كانت تعطي الأذن للأمراء بأخذ حواصل الناس وغلاتهم وهذا ما حصل سنة ٧٩٥ هـ /١٣٩٢م عندما علم السلطان باقتراب تيمورلنك من المنطقة، فقد أمر نائب الشام أن يجهز العساكر وأن يختم على حواصل الشعير الذي للناس برسم الركاب الشريف، وكانت الناس في أيام شدة منذ منطاش وحتى ما بعد قدوم تيمورلنك للمنطقة[2].

وشجع قدوم الغزاة للمنطقة بعض الخارجين والطامحين في الاستقلال إلى إحداث القلاقل والاضطراب الأمني، كذلك شجع قدومهم البدو مع بعض الزعار والحرافيش إلى استغلال أوضاع المجتمع والقيام بأعمال تسيء لهذا المجتمع، ففي سنة ٧٠٢ هـ /١٣٠٢م استغل البدو والحرافيش الأوضاع السياسية المضطربة، واستعدادات العامة للغزو العسكري، فقاموا بنهب بساتين النسا وقطع الأشجار، فقد قطفوا المشمش قبل أوانه وكذلك القمح والباقلاء وسائر الخضروات[3].

وقد قام البدو بحرق القرى وقطع أشجارها نتيجة قطع الحكومة إقطاعاتهم سنة ٧٦٤ هـ /١٣٦٢م بسبب موقفهم المعادي للسلطة، فقد قام آل فضل بإحراق تدمر فاحترق الكثير من أشجارها، ورعي أراضيها ونهبها، وكانت تدمر مصدراً غنياً لزراعات متنوعة في المنطقة. كذلك قام شمس الدين البرلي سنة ٦٥٩ هـ /١٢٦٠م بإحراق زرع بيد العشر حين نزل على حماة[4].

أدى قتل الفلاحين وتشريدهم إلى تناقص مساحة الأراضي المزروعة، التي أثرت بالتالي على نقص في المواد الزراعية الأولية التي كانت تعتمدها المنطقة للزراعة، فالغوطة تعرضت للنهب والفساد بها وقد اثر ذلك عليها سلباً إضافة إلى قرى المناطق الشمالية كحيلان وغيرها، التي

١- الذهبي: دول، ج ٢، ص ٢٠٥- العيني: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٦٢- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٣، ص ٣٦٩.

٢- ابن صصري: المصدر نفسه، ص ١٤٥.

٣- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٤- دهمان: ولاة، ص ١٣٨.

٤- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢١١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٣٠١.

تأثرت بقدوم الغزاة كثيراً وخاصة عند قدوم تيمورلنك إذ أصبحت أراضيها مسرحاً للنشاط العسكري، كذلك قرى حمص وحماة وقد وصلت الغارات حتى قرى فلسطين التي لا بد أنها قد تأثرت ولكن بنسبة أقل من القرى الأخرى، وكل هذا أدى إلا إتلاف المزروعات[1].

كما قام الغزاة أنفسهم بقطع الأشجار وذلك انتقاماً من السكان، فلما عسكروا بحلب استمروا شهراً يقتلون في أهل القرى إضافة إلى قطع الكثير من الأشجار، وكذلك نالت ماردين نصيباً من قطع الأشجار وتخريبها مثل حلب بل جعلوا أعاليها اسافلها[2].

وتمخض الغزو عن إتلاف الكثير من المحاصيل الزراعية، فادى ذلك إلى غلاء الأسعار وإلى فقدان الكثير من هذه المحاصيل كالقمح مثلاً حيث اضطرت الحكومة ممثلة بالنواب في بعض الأحيان إلى جلبه من مصر. فنائب طرابلس قام سنة ٧٣٥ هـ /١٣٣٤م بطلب الغلال من مصر من أجل أن طرابلس قد احتاجت إليه. وكانت بلاد الشام فيما مضى هي المصدر الأول لتزويد مصر بالغلال وخاصة القمح والشعير، وقد احتاجت مصر ذلك أكثر من مرة، ففي سنة ٧٣٦ هـ /١٣٣٥م وبعد طلب نائب طرابلس احتياجه من الغلال وقعت مصر في أزمة خانقة وفي غلاء شديد وفقدان مادة الخبز، فكتب لنواب الشام بحمل الغلال إلى مصر، فنفذ الأمر، وبعثت الغلال على الجمال فكانت نحو أربعة آلاف غرارة من الكرك والشوبك[3].

واحتلت بلاد الشام الصدارة في تمويل مصر بالأغنام، فكلما ازداد سعر اللحم في مصر وفقد من الأسواق، كان يطلب من بلاد الشام تمويلها بالمادة المفقودة[4].

وظهرت الاحتكارات في المنطقة نتيجة لقلة المواد الغذائية وخاصة الزراعية منها، وكان خير ممثل لها في المنطقة ابن النشو (ت ٧٧٩ هـ /١٣٩٦م)، فقد أصبح يحتكر الحبوب ولا يبيع لأحد شيئاً إلا بعد مراجعة فقلت الأقوات وعزت على الناس عندئذ تعاونوا جميعاً على قتله وقاموا بهذا الفعل في سنة ٧٩٩ هـ، ورداً على ذلك كتب نائب دمشق إلى السلطان بما حصل، فأمر السلطان بمعاقبة الذين فعلوا ذلك، فحصل لكثير من الشاميين أذى كبير، وكتبوا

١- اليونيني: ذيل مرآة، ج ٢، ص ٧٣- ابن أيبك الدواداري: الدر الفاخر، ص ٢٣- الذهبي: دول، ج ٢، ص ٢٠٣-٢٠٨- الصفدي: الوافي، ج ٤، ص ٦١- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٤، ص ١١٩.

٢- العسقلاني: أنباء الغمر، ج ٤، ص ١٩٧- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٢٢٥- الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٩٢-٩٣- ابن إياس: بدائع، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٨.

٣- ابن عبد الظاهر: تشريف، قمم ابن الفرات، ص ٧٧- اليونيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٥- الذهبي: ذيول العبر، ص ١٣٢- اليوسفي: نزهة الناظر، ص ٢٣٦-٢٩٥-٣٠٠.

٤- اليوسفي: نزهة الناظر، ص ٣٤٦.

فيه محضراً بما كان يبدو من المذكور من الفجور والظلم المفرط، وظل النائب يلطف القضية حتى عفا عن الناس[1].

وأهم الآثار التي ظهرت هي اللجوء إلى الرشوة أو شراء المناصب على كافة أنواعها (سيذكر عنها بالتفصيل فيما بعد). والذي اشترى منصبه بالرشوة لم يكن أمامه سوى تعويضه عن طريق الضرائب والقسوة والاستغلال، وقاد ذلك إلى المزيد من التمزق المعيشي للفلاحين وسوء أوضاعهم وقد صورها المقريزي: (فماذا هي أهل الريف بكثرة المغارم وتنوع المظالم اختلت أحوالهم، وتمزقوا كل ممزق، وجلوا عن أوطانهم، فقلت مجابي البلاد ومتحصلها، لقلة ما يزرع بها، ولخلو أهلها ورحيلهم عنها لشدة الوطأة من الولاة عليهم، وعلى من بقي منهم»[2].

وقد كان واقع الفلاحين الاقتصادي والاجتماعي في مصر يشابه الواقع في بلاد الشام ويماثله، إلا أن الفلاحين في بلاد الشام كانوا أحراراً أكثر.

وقد رافق تدمير محاصيل الأراضي الزراعية إلى فرض الأعباء المالية على الفلاحين من قبل الغزاة، أو من قبل السلطة الحاكمة وذلك لسد العجز المالي الذي حصل في الخزانة، ففي سنة ٧٠٠ هـ/١٣١٥م قامت الحكومة بفرض ضرائب أربعة أشهر على القرى والضياع، وأخذت عن كل مدة ستة دراهم وثلثا درهم ومن الفلاحين ضريبة المغل إضافة إلى أصحاب الأملاك في دمشق، وكان مغل هذه السنة قليل بسبب وجود العدو في المنطقة، وبالتالي لم يستطع الفلاحون تسديد الضريبة فاضطروا إلى قطع الأشجار وبيعها حطباً، وقد بلغ الحطب كل قنطار دمشقي بثلاثة دراهم نقرة، حتى لم يجدوا من يشتريه، وفي النهاية لم تستفد الحكومة من هذه الأموال الضريبية، بل إن أكثر المستخدمين الذين جبوا هذه الأموال هم الذين استفادوا منها وسرقوها، ولم يصل لبيت المال شيء، وقد أبطل هذا الديوان بعد أن جبوا الأموال من الناس[3].

وقد تنبه ابن خلدون إلى أن إكثار الضرائب والمغارم على الفلاحين سوف يقود الدولة إلى الانهيار العام حيث قال:

١- العسقلاني: أنباء، ج ٣، ص ٣٢٨-٣٦٠- ابن صصري: المصدر نفسه، ص ١٣٨-١٦٦-٢٠٧-٢١٠.

٢- المقريزي: إغاثة، ص ٤٤.

٣- ابن ايبك الدواداري: المصدر نفسه، ص ٤٤- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٤- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٠٧- دهمان: المرجع نفسه، ص ١١٤.

«اعلم أن الجباية أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة، وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة والسبب في ذلك أن الدولة إن كانت على سنن الدين فليست إلا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهي قليلة الوزائع لأن مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت.. وإذا قلت الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه فيكثر الاعتمار ويتزايد محصول الاغتباط بقلة المغرم وإذا أكثر الاعتمار كثرت أعداد تلك الوظائف والوزائع فكثرت الجباية التي هي جملتها فإذا استمرت الدولة واتصلت وتعاقب ملوكها واحداً بعد واحد واتصفوا بالكيس وذهب شر البداوة والسذاجة وخلفها من الأعضاء والتجافي وجاء الملك العضوض والحضارة الداعية إلى الكيس وتخلق أهل الدولة حينئذ بخلق التحذلق وتكثرت عوائدهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف فيكثرون الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا والأكرة والفلاحين وسائر أهل المغارم ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقداراً عظيماً لتكثر لهم الجباية ويضعون المكوس على المبايعات وفي الأبواب كما نذكر ثم تتدرج الزيادات فيها بمقدار بعد مقدار لتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والإنفاق بسببه حتى تثقل المغارم على الرعايا وتهضم وتصير عادة مفروضة لأن تلك الزيادة تدرجت قليلاً قليلاً ولم يشعر أحد بما زادها على التعيين ولا من هو واضعها إنما ثبت على الرعايا في الاعتماد لذهاب الأمل من نفوسهم بقلة النفع إذا قابل بين نفعه ومغارمه وبين ثمرته وفائدته فتنقبض كثير من الأيدي عن الاعتمار جملة فتنقص جملة الجباية حينئذ بنقصان تلك الوزائع منها، وربما يزيدون في مقدار الوظائف إذا رأوا ذلك النقص في الجباية ويحسبونه جبراً لما نقص حتى تنتهي كل وظيفة ووزيعة إلى غاية ليس وراءها نفع ولا فائدة لكثرة الإنفاق حينئذ في الاعتمار وكثرة المغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به فلا تزال الجملة في نقص ومقدار الوزائع والوظائف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها إلى أن ينتقض العمران بذهاب الآمال من الاعتمار ويعود وبال ذلك على الدولة لأن فائدة الاعتمار عائدة إليها»[1].

وكان من آثار الحملات العسكرية المغولية المتكررة أن وجد نظام إقطاعي ظالم عانى منه الفلاحون كثيراً، فقد كانت سياسة السلاطين في توزيع الإقطاعات ناتجة عن الضغط المغولي المتكرر على المنطقة، فلكي يرضي السلاطين الجند والأمراء كانوا يقفون عليهم الإقطاعات الكبيرة والكثيرة ليضمنوا وقوفهم إلى جانبهم ساعة وقوع المعركة، وقد انعكس هذا سلباً على وضع الفلاح في المنطقة، فلم يكن له الحق في مغادرة الأرض التي

١- ابن خلدون: مقدمة كتاب العبر ديوان المبتدأ والخبر، بيروت، دار العودة، ١٩٨١، ص ٢٢١.

يعمل بها إلا بعد مرور ثلاث سنوات، وإن حدث وغادرها يعاد إليها بالقوة.

وكان الفلاحون ملزمين بإيجار الأرض، وهو حصة المقاسمة وتتراوح بين ١/٨-١/٢ الحاصل حسب خصب الأرض وموقعها وطريقة ريها. وكذلك كان ملزماً بدفع العشر من نصيبه من الإنتاج وعليه دفع ضرائب ورسوم، ونفقات الحملات، وضريبة السدود والترع وأجور الرعي وغيرها. فأصبح الفلاح الجارية في إقطاعات الأمراء.. وزادوا في مقادير الأجور.. فجعلوا الزيادة ديدنهم كل عام، حتى بلغ الفدان لهذا العهد نحواً من عشرة أمثاله... لا سيما أنه لما تضاعفت أجرة الفدان من الطين، وتزايدت كلفة الحرث والبذر والحصاد وغيره، وعظمت نكاية الولاة والعمال واشتدت وطأتهم على أهل الفلح وكثرت المغارم في عمل الجسور وغيرها.. فخرب بما ذكرنا معظم القرى وتعطلت أكثر الأراضي من الزراعة ونقصت الغلات»[1].

كما لحق الظلم بالفلاحين جراء الضرائب التي كان البدو يفرضها عليهم من وقت لآخر فيسببون لهم المعاناة الدائمة[2].

وقامت الحكومة بإلزام الفلاحين في بعض الأحيان بالدفاع عن البلاد، وقد استطاعت تجنيدهم عند قدوم الغزاة، فقد اشتركوا في عين جالوت حيث قتل الفلاحون عدداً كبيراً من المغول ولم يسلم من الأعداء إلا القليل[3].

كم رسم السلطان لأهل القرى سنة ٦٧٢ هـ /١٢٧٣م أن تخرج كل قرية خيالة على قد رجال أهل القرية كما يقومون بالإنفاق عليهم[4].

وقد ذكر ابن شاهين الظاهري بأنه كتب على كل قرية من القرى التي بالشام ومصر خيالين، فكان عدد ما كتب على القرى خاصة ستة وستين ألف خيال ما بين الوجه القبلي والبحري من مصر، ومن انج إلى ديار بكر[5].

والمفروض أن الحملات العسكرية المغولية سببت أضراراً كبيرة لوسائل الري ولقنوات المياه سواء مياه السقاية أو مياه الشرب، أضيف إلى ذلك إهمال نظام الري المعمول به في المنطقة وتخريب آلات السقاية التي تعددت أنواعها، فمياه الشرب في القرى كانت أحياناً تجر

١- السبكي: معيد النعم، ص ٣٤- المقريزي: إغاثة الأمة، ص ٤٥-٤٧- الدوري: (عبد العزيز) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، بيروت، ١٩٦٨، ص ١٠٦-١٠٧- غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس، ص ٧٨.

٢- غوانمة: المرجع نفسه، ص ٧٨-٧٩.

٣- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٨٠.

٤- ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٤٢٠- المنصوري: التحفة، ص ٧٨- المصدر نفسه، ص ٢٠٦.

٥- الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١٠٤-١٠٥.

من مدينة دمشق. اضطروا إلى استعمال الحجارة لرمي المنجنيق فخربوا حيطاناً كثيرة وأخذوا حجارتها، كما خربوا كثيراً من القنوات بسبب أخذهم لهذه الحجارة[1].

وتعطلت بسبب ذلك تقاسيم المياه بمدينة دمشق، وقد أقدم النائب تنكز على إصلاح هذه التقاسيم ونظف مجاريها، وفتح طرقها في فترة ولايته[2].

أما الفلاحون في دمشق وغوطتها فكانوا يعتمدون على نهر بردى المتفرع إلى سبعة أنهر أربعة غربية وهي نهر داريا ويعرف بالداراني، ويتفرع قبل الربوة عند الشاذروان، وهو يسقي داريا وأراضيها وما والاها، وهو يسير بأقنية إلى القرية ومن المروض أن مياهه تعرضت للتلوث نتيجة للإهمال والعفونة وتردي الأوضاع الاقتصادية التي انعكست سلباً على المجتمع الريفي.

يضاف لنهر داريا، نهر المزة، القنوات، بانياس. واثنان شرقية هما نهرا يزيد وثورا ونهر بردى ممتد بينهما، وطبيعي أن الفلاحين في القرى يعتمدون على الأنهار الآنفة الذكر في السقاية. وكان نهرا بانياس والقنوات يدخلان المدينة، ويخترقا نهر بانياس القلعة ثم ينقسم قسمين، قسم للجامع وقسم للقلعة، ثم ينقسم كل منهما على أقسام كثيرة ويتفرق في المدينة، ثم يخرج ويسقي بساتين الغوطة، وكان عليه عدة طواحين وتشرب منه بساتين وأراض كثيرة. أما نهر القنوات فهو يجري في قني مدفونة في الأرض إلى أن يصل إلى الدور، ثم تنصب فضلات الماء إلى قني معقودة تحت الأرض، ثم تجتمع وتخرج إلى ظاهر المدينة لسقاية البساتين. وقد اختلفت وتنوعت وسائل الري في كل قرى بلاد الشام وذلك بحسب طبيعتها ففي حماة وأريافها سادت الناعورة وكانت توضع على العاصي، وترفع الماء إلى الدور والبساتين والغيطان، أو عن طريق الآبار. أما في حلب فكانت الأرياف تشرب إما من مياه الينابيع، أو من نهر قويق، أو من الساجور التي استحدثه الناصر محمد[3].

يستخلص من مختلف المصادر التي أشارت إلى الفلاحين ونزوحهم من الريف إلى المدن أنهم لم يكونوا يتقنون سوى لغة الأرض وبالتالي يعلل هذا تدني المستوى الثقافي للفلاحين. كما سبب النازحون من الريف إلى المدن مشاكل اجتماعية كثيرة أهمها على الإطلاق ازدياد عدد العاطلين عن العمل، وعاش هؤلاء النازحون كفئة متطفلة على المجتمع المدني، فالذي لم ينخرط في سلك

١- أبو شامة: تراجم، ص ٢٠٤- اليونيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٥١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣- ص ٢١٩- القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٤٠- العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤١.

٢- المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥١٠- دهمان: المرجع نفسه، ص ١٦٥.

٣- أبو الفداء: تقويم، ص ٢٦٣-٣٧٨- العمري: مسالك الأبصار، ص ١٢٦-١٣٢- القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٨٠-٩٥- ١١٧- ابن عبد الهادي: رسائل دمشقية، ص ٣١-٣٥.

الزوايا وخانقاوات الصوفية انحرف إلى طريق الجريمة من الاستهتار وتعاطي المخدرات.

كما عانى الفلاحون في بلاد الشام من ظلم الإقطاع ورجال الدولة، ودفع ثمن المخاطر الخارجية التي نجمت عن الأعمال العسكرية المغولية حيث أتلفت محاصيلهم نتيجة إما تدمير القرى أو كون هذه الأراضي مسرحاً للعمليات الحربية.

وتمخض الغزو المغولي إضافة إلى ما سبق ذكره عن تخلخل سكاني في القرى فقد أدى نزوح أهل الريف إلى النقص في عدد سكانه، فضلاً عما أصابه من خراب، وإلى ظهور نزاعات قديمة تجددت بين قبلتي قيس ويمن، وإلى تمرد أهل الجبال في كسروان والجرد، وإلى تسلط عناصر بيروقراطية في حكومة المماليك على الفلاحين، وإرهاق الفلاحين بفرض ضرائب إضافية وهذه قضية هامة جداً بالنسبة لفلاحي هذه الفترة حيث كانت هذه الضرائب في بعض الأحيان لتغطية النفقات العسكرية لصد الغزاة. ولم يقتصر ظلم الفلاح على دفعه الضرائب فقط بل تعداه إلى إشراكه في الحملات العسكرية، وتجنيد أهل القرى وإلزامهم بدفع نفقات الخيالة المجندين من بينهم.

كما دفع الفلاحون ثمناً للاضطرابات الداخلية بين المماليك أنفسهم خاصة عند ظهور دوافع استقلالية لدى بعض النواب أو الأمراء في بلاد الشام.